تسهجير

هبة الله رزق عيسى

رواية

تهجير

هبة الله رزق عيسى

رواية
تهجير

الكاتبة
هبةالله رزق عيسى

تـــدقيق لغـــوي وتصـــميم غـــلاف داخلـــي وخـــارجي وتنســـيق داخلـــي وتعبئـــة: هبـــة الله رزق عيسى

{بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ}

إهداء

إلى من استوحش قلبي بفراقهم، أتظنون أن التهجير من تهجر من بيته فقط؟ كلا بل إن فراقكم جعل قلبي يتهجر من راحته وفرحته وسكنته الأحزان والأوجاع وآلام الفراق التي تفاقمت حتى جعلت روحي كأنما تَصَّعَدُ في السماء، فأسأل الله الرحمة ليس لكم فقط بل لي معكم فأنا من تتعذب وأضناها الفراق.

رحم الله أمي وأبي، رحم الله قلبي ومن يشتاقهم.

مقدمة

تهجير؛ ليس مجرد ترك بيت أو قرية أو وطن بل هو فقد روح، فقد أهل، فقد أمن وأمان وأمل. تهجير؛ هو انتقال من بلد لبلد ومن بيت لبيت ولم يستقر بنا المقام بعد. تهجير؛ ليس باختيارنا وما أردناه ولكنه في الواقع مذلة ومشقة ونفوس تكسرت وتتكسر كل يوم بعد أن كانت عزيزة آمنة. تهجير؛ هذا هو مآلنا وما صرنا إليه، فقدنا منزلنا وفقدنا معه الأمان والاستقرار، ترى متى يستقر بنا المقام ونستريح من التهجير ونجد الملاذ النهائي؟ هل سيأتي يوم ويعود الطير المهاجر لوطنه ويعود آمنًا مرة أخرى؟ ليته ينتهي هذا التهجير.

هبة الله رزق عيسى

الفصل الأول
"بداية المعاناة"

"مفاجأة" تلك الكلمة التي ترتبط دومًا بالسرور؛ دائمًا ما تكون سارة فتجعل الشخص سعيدًا مبتهجًا، لكنها هذه المرة تغير معناها وارتبطت معنا نحن بالأسى والضياع وكانت بداية لمعاناة عظيمة لا تنتهي.

"ملاذ" هذا هو اسمي الذي اختاره لي أبي "مُعْتَمَدْ" حتى أكون ملاذه الآمن وسنده في الحياة -فأنا ابنته الكبرى- كما اختار له أبوه هذا الاسم ليكون مُعتمده في الحياة وسنده والداعم له. كنت دومًا الملاذ الآمن للجميع؛ أمي وأبي وعمي وزوجته وأخوتي وكل أقاربي وحتى الزملاء والجيران، بنك الأسرار وحافظة الأمانات للجميع، وكذلك السند في وقت الصعوبات؛ فأنا كما يصفني الجميع "ملاذ ابنة معتمد،

اسم على مسمى، فهي حقًّا ملاذ آمن ومُعتمد قوي لكل من احتاجها".

أنا الآن في عمر الثلاثين، جميلة نعم ولكن لم ينفعني جمالي، أتاني بمتقدمين كُثُر للزواج ولكن فقري المدقع حال دون إتمام الأمر فوصلت لهذه السن ولم أتزوج بعد ولا أريد ذلك حتى أظل المعين لأبي في إعالة أسرتي. بعد عشر سنوات من ولادتي أنجبت أمي أختي "مأوى" فأصبحت المأوى لقلبي وصديقتي الوحيدة بل وابنتي التي لم أنجبها والتي هي الآن مقبلة على عامها النهائي في الجامعة حيث تدرس في كلية الحقوق. بعد خمس سنوات من ولادة مأوى أتانا آخر العنقود وفرحة أسرتنا الصغيرة ومن عليه تنعقد آمالنا أخي الحبيب "مآب" وهو الآن في مرحلته الثانوية والذي نسعى جاهدين أن نوفر له كل السبل حتى يحقق حلمنا ويصبح ذا شأن كبير يرفع من شأن عائلتنا ونفخر به في كل مكان. أما عن

أمنا "مُنتهى" فهي نعم الزوجة الصالحة التي صبرت على مصاعب الحياة وضنكها وأعانت زوجها ولم تتركه لحظة واحدة ولم تشق عليه أبدًا في المطالب ولم تشعره قط بأنه مقصر في حقها وحق أبنائها طيلة سنوات زواجهما الأربع والثلاثين، فقد تزوجا وأمي بعمر السادسة عشر وأبي بعمر العشرين، ظلا أربع سنوات دون إنجاب حتى أنجباني فكنت فرحتهما الكبرى.

لا نعيش وحدنا بل يسكن معنا عمي مأمون وزوجته "مأمنْ" وابنهما الوحيد "مَوئل" والذي يكون تِرب أختي في العمر وأخاها من الرضاع وهو الآن طالب في كلية التجارة وبقي له عام التخرج، عمي مأمون يصغر أبي بخمس سنوات أما زوجته فهي تصغره بعامين وقد وقع لها حادث جعلها قعيدة ونتركها دائمًا في البيت وحدها تتحرك بواسطة الكرسي المتحرك بينما نذهب جميعًا إلى العمل ويذهب أخوتي للدراسة.

قد يكون عمل الإنسان بسيطًا وعائده لا يُذكر ولكن بالرضا والقناعة تحل البركة فيما رزقك الله وهذا هو ما يحدث لنا؛ عملنا الذي نعمل به جميعًا هو بيع بعض المأكولات الشعبية في الأسواق التي تكون في القرى المجاورة، كل يوم نذهب إلى قرية منهم بواسطة سيارتنا التويوتا المتواضعة، فهي قديمة جدًا لكنها تفي بالغرض. نسهر الليل كل ليلة نصنع المأكولات ونأخذها بعد صلاة الفجر ونذهب إلى السوق نبيع ما تيسر ثم نعود قُرب العصر فنستريح قليلًا حتى يقبل الليل ونكرر الأمر. في إجازات المدارس والكليات يذهب أخوتي معنا ويقومون بأخذ بعض المأكولات وتوزيعها على الباعة مساهمة في زيادة نسب البيع. ذات يوم كنا جميعنا في سوق قرية بعيدة عن قريتنا فعدنا منه متأخرين، وصلنا قريتنا ووجدناها فارغة من المارة مما أثار دهشتنا، اقتربنا من منزلنا فوجدنا القرية كلها تقريبًا مجتمعة حوله وقد كانت

المفاجأة التي غيرت مجرى حياتنا منذ ذلك اليوم؛ لقد وجدنا منزلنا أصبح رُكامًا! نعم قد انهدم منزلنا تمامًا، لقد كان قديمًا خائرًا ولكنه كان يجمعنا أسفل سقفه وبين حوائطه الهشة وها هو الآن قد أصبح من الماضي وتركنا في العراء لا ندري إلى أين نذهب وماذا سنفعل في أيامنا القادمة. نزلنا جميعًا من السيارة وهرولنا تجاه المنزل وقد تملكنا الرعب والجزع وامتلأت أعيننا بالدموع وتهافتت أفواهنا بالصراخ رغمًا عنا، لم يكن همنا في ذلك الوقت المنزل الذي لم يعد له وجود ولكن كنا نصرخ باسم العمة مأمن فهي كانت في المنزل ولا شك أنه سقط فوقها. حاول أهل القرية منعنا من الاقتراب قدر المستطاع ولم يفلحوا إلا عندما أخبرونا أنهم أخرجوا العمة مأمن وأخذتها عربة الإسعاف إلى المشفى. هرولنا عائدين إلى السيارة مرة أخرى وتوجهنا إلى المشفى، ما إن وصلنا حتى أخبرونا أنها قد انتقلت إلى جوار ربها، ذهبنا لنراها ونودعها الوداع

الأخير، انهار العم مأمون وابنه موئل بشدة ونحن أيضًا فقد كنا نحبها لحنانها وطيبتها وتقواها فقد كانت راضية بقدرها وأرجو أن يتقبلها الله في الشهداء. أخذوها إلى مغسلة الموتى فذهبنا نحن النسوة معهن فغسلناها وكفنَّاها ثم أخذناها في عربة تكريم الإنسان وعدنا إلى قريتنا فدفناها ليلًا وقد اجتمعت القرية كلها لتوديعها الوداع الأخير، وقد بعنا سيارتنا بسرعة بثمن بخس حتى نستطيع تدبير أمر الكفن والدفن وتجهيز المقبرة.

بعد الدفن وتلقي العزاء على القبر لعدم مقدرتنا على إقامة عزاء لها وقد كان أبناء خالي -رحمه الله- قد أتوا لمواساتنا فطلبوا منا أن نذهب معهم إلى بيتهم فهو واسع وسيسعنا جميعًا، لم نستطع الرفض فلم يعد لنا مكان نذهب إليه وليس لدينا وقت ولا طاقة للتفكير والتصرف، ذهبنا معهم ولكن أمهم استقبلتنا استقبالًا جافًا مما أشعرنا بعدم تقبلها لوجودنا بينهم لكن ما باليد حيلة نحن مضطرون لذلك. كان

بيت خالي مكون من طابقين؛ الطابق الأول يقطنه أولاد خالي وأمهم، والطابق الثاني هو شقة ابن خالي الأكبر وهي جاهزة لزواجه الذي اقترب.
طلب ابن خالي من أمه أن نقطن شقته لحين موعد زواجه لكنها رفضت بشدة وارتفع صوتها وهي تخبره بالرفض حتى تناهى إلى مسامعنا وقد كانا في غرفة أخرى. البيت مكون من أربع غرف؛ غرفة نوم زوجة خالي، غرفة نوم بنتيها، غرفة نوم ولديها، وغرفة استقبال، هذا غير المطبخ ودورة المياه وصالة كبيرة. بالطبع لم تعرض زوجة خالي على أي منا أن تشاركها في غرفتها فقسمتنا كالتالي؛ نتشارك أنا وأختي وأمي أحد الأَسِرة في غرفة ابنتيها وتتشارك البنتان السرير الآخر، يتشارك أخي وابن عمي أحد الأسرة في غرفة ولديها بينما يتشارك ولديها السرير الآخر، أما عن أبي وعمي فسينامان في غرفة الاستقبال. لم نتفوه بأي كلمة غير الشكر وذهبنا للنوم دون

عشاء فهي لم تعرضه علينا ولم يستطع أبناؤها أن يعرضوه دون أمرها. ذهبنا للنوم فشاركنا الأبناء بعض من ملابسهم فلم يعد لدينا غير ما كنا نرتديه، توجهنا للنوم وقد أغمضنا أعيننا ولكن جفانا النوم من هول ما رأيناه وما نحن مقدمين عليه. في الصباح استيقظنا على صوت صراخ زوجة خالي في ابنتيها ليستيقظا لتحضير الإفطار، نهضنا معهما لنساعدهما لكن زوجة خالي قالت لنا بحدة: لا يقترب أحد من مطبخي.

توجهنا جميعًا لغرفة الاستقبال ومكثنا فيها بقية اليوم، وقد كان الطعام شحيحًا رغم غِناهم ولكن زوجة خالي معروفة بشُحها وبغضها لنا. في الليل دخلت علينا الغرفة وفاجأتنا بقولها: في الصباح يجب أن تبحثوا عن عمل آخر طالما ضاعت أدواتكم في الهدم، لن تقيموا معنا هنا بالمجان، يجب أن تدفعوا مقابل الطعام والإقامة فأنا لن أحول منزلي إلى ملجأ.

تبادلنا النظرات وقد اعتلت وجوهنا الدهشة ثم نظرنا إلى أبنائها فوجدناهم مُطأطئي الرأس وقد ملأت وجوههم حمرة الخجل من تصرفات أمهم لكنهم لم يجرؤوا على الاعتراض خوفًا من ردة فعلها.
نعلم أنها شحيحة وقاسية ولم تحبنا قط ودومًا كانت تعاملنا بجفاء ولكن أيصل بها الأمر إلى هذه الدرجة؟! ألا يوجد في قلبها ذرة رحمة فتراعي ما نحن فيه وما آل إليه حالنا؟! يا لها من امرأة لا تعرف للإنسانية معنى!

في الصباح ذهب رجالنا إلى السوق محاولين إيجاد أي عمل حتى لو كان أن يحملوا البضائع للباعة مقابل مبلغ زهيد من المال، أما نحن النسوة فقد جعلتنا نعمل في الحظيرة مقابل الطعام والإقامة حتى يستطيع رجالنا الحصول على المال.
مر أسبوع على هذه الحال إلى أن أتت اللحظة القاصمة.

الفصل الثاني
"طفح الكيل"

كنا نظن أننا وجدنا مأوى لنا ريثما يُفرج الله كربنا ويرتب لنا أمورنا ولكن اضمحلت آمالنا فجأة ولم نعد ندري ماذا نفعل؛ حيث أنه بعد أسبوع واحد من وفاة زوجة عمي وانهيار منزلنا أعلنت زوجة خالي أنها ستُقدم موعد عرس ابنها، وقع هذا الخبر علينا كالصاعقة، ألا تراعي مشاعرنا؟! لقد فقدنا بيتنا وفردًا من عائلتنا! فلتعتبرنا غرباء، أكانت ستفعل ذلك؟ كان الموعد قد اقترب لكنه بعد شهرين فالأوجب أن تؤخره لا أن تقدمه كل هذا! صمتنا جميعًا ولم نَدْرِ ما نقول فقالت بلهجة حادة: أرى من عبوس وجوهكم أنكم لا تحبون ابني ولا ترجون له الخير والسعادة، ألستم فرحين بزواجه؟ أتريدونه أن يظل أعزبًا دون زواج حتى يفوته قطاره كما حدث لملاذ؟

وقعت كلماتها على قلبي كأحجار من جمر، ما ذنبي أنا في فقري؟ لم أستطع التحدث وأدمت الدموع قلبي وقد خَنَقْتُهَا حتى لا تخرج، كادت أمي أن تتعارك معها لكن أبي نظر لها فصمتت.

قال لها أبي بابتسامة مصطنعة: ملاذ ابنتي ترفض أن تتركنا، إنها ترفض الزواج برغبتها، ولا نريد أن نزوجها رغمًا عنها، كما أننا لا نطيق فراقها، أما عن ابنك فهو مثل أبنائي ونحبه جميعًا ونتمنى له الخير وأن يحيا بسلام مع زوجته الحنون اللطيفة عذبة اللسان، فهو يستحق كل خير لأنه طيب وخلوق ويحب الخير لغيره مثل أبيه -رحمه الله-، مبارك له، وأسأل الله أن يتم عليه بالخير.

أفحمتها كلمات أبي فاغتاظت واحمر وجهها غضبًا ولكن كلماته تلك أثلجت صدري، ولكن زوجة خالي واسمها حريصة قالت ما لم نتوقعه: حفل الزفاف

الأسبوع القادم، وقد اتفقت مع والد العروس على ذلك، ومن الغد سنبدأ تجهيزات العرس وستساعدوننا فيها، ولن تذهبوا للعمل، وستبيتون بالخارج في الحديقة لأفرغ الغرف للضيوف من أقاربي، وبعد العرس تعودون للعمل.

قالت كلماتها تلك وتركتنا وذهبت ونحن وأبناؤها في ذهول مما قالته.

في اليوم التالي بدأنا العمل من أجل تحضيرات العرس وأصبحنا نبيت في العراء دون فُرُش أو غطاء حتى أن إحدى بناتها أحضرت لنا غطاء لنفرشه أسفلنا فنهرتها أمها أمامنا وقالت لها: "ستلوثين الغطاء." وأخذته منا.
مر الأسبوع ونحن في هذه المذلة؛ عمل شاق طوال اليوم حتى وقت متأخر من الليل وطعامنا الماء والقليل من الخبز فقط في الصباح وفي منتصف اليوم دون أي طعام آخر نتناوله مع الخبز حتى لو كان

ملحًا أو زيتًا، لم تترك فرصة لأحدنا ليذهب ليشتري بعض الطعام أو حتى يتسوله، كنا ننام دون طعام والجوع يقرص أحشاءنا ويتملكنا البكاء حتى يأخذنا النوم ونحن جالسون ملتصقون نحاول أن نحصل على أبسط حقوقنا؛ بعض الدفء. نصحو نحن كل يوم فجرًا نعمل ويهلكنا العمل وأقارب الحريصة يتنعمون داخل الدار؛ ضحك ولعب وطعام فاخر ونوم هنيء.

أتى يوم العرس أخيرًا بعد لَأي، وفي الأرياف يكون نهار هذا اليوم لتناول الطعام للضيوف والفقراء والأقارب، كنا طيلة الليل مستيقظين نساعد الطباخ وطيلة النهار نروح ونجيء لإطعام الضيوف حتى أهلكنا الجوع ولم تتسنى لنا فرصة لنتناول لقمة واحدة منذ عصر الليلة الفائتة، بعد انتهاء إطعام الناس حان وقت أكل الطباخ ومساعديه ونحن فتجهزنا للطعام فأتت زوجة خالي لتوزيع

الطعام علينا فطيلة اليوم كانت تراقبنا وتُحصي الطعام الداخل والخارج، وزعت اللحم وباقي الأطعمة على الطباخ ومساعديه وعندما أتى دورنا قالت: "طعامكم في هذا الركن." وأشارت بيدها لأبعد ركن في المكان فتوجهنا إليه بصمت وحين ذهبنا أجلستنا على الأرض وأعطت لكل واحد منا رغيفًا واحدًا وقالت: لم يتبقَ أي طعام، وضعت ما تبقى للطباخ ومساعديه فهم ضيوف وينبغي إكرامهم أما أنتم فلا تحتاجون لضيافة وهذا فقط ما تبقى.

نهضت من مكاني وأنا ثائرة وحانقة وقلت لها بصوت مرتفع: أنتعب طيلة الأسبوع لتجهيزات الزفاف وبالأمس واليوم لم نَكِلَّ من العمل ولم نأكل وفي النهاية تطعمين ضيوفك الذين لم يرفع أحدهم قشة من الأرض أفضل الطعام وتعطينا نحن الفتات؟! هل نحن عبيد عندك؟ إنه بيت خالي وليس بيتك.

ابتسمت لي بسماجة وقالت ببرود: والآن أصبح بيتي أنا، وأنا فقط من يقرر من يأكل ومن لا، هذا طعامكم الذي أردت لكم، وكلمة أخرى سآخذه منكم وستنامون اليوم أيضًا دون طعام، وأنت بالذات ستفعلين.

ثم اختطفت الرغيف من يدي وذهبت وتركتني أبكي من الذل والاحتقار الذي نحياه. أعطتني أمي رغيفها فرفضت وأقسمت ألا أتناول شيئًا في بيتها مجددًا حتى الماء نفسه. بعد انتهاء أسرتي من تناول طعامهم نظفنا المكان كله وذهبنا لنستعد للعرس وحينما اقتربنا من مكان الحفل والذي يقع أمام المنزل نهرتنا زوجة خالي أمام الضيوف وقالت بغلظة شديدة: إلى أين تتوجهون؟ أتعتقدون أنني سأترككم تحضرون الحفل وتجلسون وسط الضيوف بملابسكم الرثة تلك ورائحتكم العفنة؟ أتريدون أن يسخر الناس مني؟ أتريدون إفساد زفاف ابني؟

اغربوا عن وجهي واختفوا الآن من هنا حتى ينتهي الزفاف، بعدها نظفوا مكان الحفل وناموا في العراء ككل يوم.

لم أتحمل ما قالت فغضبت حتى احتقن وجهي بالدماء وكدت أتكلم ولكن أبي نظر إليّ يستعطفني لأصمت فبكيت وتركتهم وذهبت فهرولت ابنتيّ خالي خلفي في محاولة بائسة لمواساتي فأقسمت لهما ألا أظل في هذا البيت لحظة أخرى، حاولتا تهدئتي فاغتظت أكثر وسألت أهلي: هل ستأتون معي أم أذهب وحدي؟

حاولت ابنة خالي الكبرى تهدئتي وإقناعي بالبقاء لكنني فجَّرت غضبي بها قائلة بحنق: أمك تكرهنا يا رجاء، لا أدري ماذا فعلنا لها لتكرهنا بكل هذا الكم؟ لم تحبنا يومًا ولم تتقبل وجودنا قط، منذ جئنا إلى بيتكم ونحن في مذلة ومهانة ونسمع منها كلمات مسمومة كل لحظة تذيب قلوبنا بل تذيب الحجر، أَذَنْبُنَا أننا فقراء ولسنا في

مستواها؟ أهذا سبب كرهها لنا؟ فلتعتبرنا متسولين وتتصدق علينا على الأقل، فلتقدر ما نحن فيه وتعاملنا بلطف، أليس لنا حق في الحياة؟ هل من يفقد بيته كُتب عليه أن يصبح كالوباء يخاف أن يقترب منه الجميع بل ويتفننون في إذلاله والتلذذ بزيادة معاناته؟ ألا يوجد في قلبها ذرة رحمة فتعطف على من تلاحقت عليهم الكروب؟ ليتنا ما أتينا إلى هنا، ولكن هذا الخطأ سنصححه الآن.

ثم وجهت كلامي لأبي وقلت: هيا يا أبي، لنترك هذا المكان اللعين ونبحث عن مأوى آخر.

قال أبي برجاء: إلى أين يا ابنتي؟ لا نعرف أحدًا غيرهم، فأين سنذهب في هذا الليل؟

قلت له بيقين: من خلقنا لن يتركنا، فلنترك أمر المكان لله يدبره لنا، فقط فلتحملنا

أقدامنا إلى حيث أراد لها الله، فلنسعَ فقط ولا نتخاذل وننتظر الفرج ونحن لم نعمل له، هيا بنا فالليل لن يكون أشد إيلامًا مما نحن فيه بل هو صديق المستضعفين فيملأون سكونه بصوت مناجاتهم لله العظيم الرزاق ذو الرحمة الواسعة فهو فقط من بيده مقاليد السماوات والأرض وليست بيد البشر.

ثم تركتهم وذهبت فأتوا خلفي وتركنا ابنتي خالي تبكيان لعدم استطاعتهما مساعدتنا لضعفهما أمام سلطان وجبروت أمهما المتسلطة سليطة اللسان متحجرة القلب. مضينا في طريقنا لا ندري إلى أين ستستقر بنا أقدامنا حيث أراد لها الله ولكن امتلأت قلوبنا يقينًا بأن أقدار الله كلها خير وإن كان ظاهرها موجعًا ويبدو لنا شرًا. كان الصمت يغلف تحركاتنا إلا من صوت خطواتنا ولكن ألسنتنا كانت تتحرك داخل أفواهنا مرددة ذكر الله فهو الأنيس لنا في هذه الوحشة، وقلوبنا تبتهل بالدعاء

ليعوضنا الله بما هو خير لنا. سرنا خطوات طويلة في ذلك الطريق الذي لا نرى له نهاية ولا تتضح معالمه حتى أنهكنا المسير فوجدنا صخورًا على جانب الطريق فجلسنا عليها ومن شدة الإنهاك نمنا حيث نجلس، وبعد وقت قصير استيقظتُ أنا وكل الأسرة على صوت صراخ أختي فنظرت حولي فلم أجدها! أين اختفت يا ترى؟!

الفصل الثالث
"حالة مأوى"

"أيــن مــأوى؟ أيــن ابنتــي؟!" كانــت تلــك الكلمـات هـي صـرخات أمـي عنـدما اسـتيقظت ولـم تجـد مـأوى بيننـا، أخـذنا جميعًـا نبحـث عنهـا فـي كـل مكـان حولنـا دون جـدوى، المكـان ظـلام دامـس ومـوحش حتـى أنـه لا وجـود لأي آثـار للبشـر مـن قريـب أو بعيـد؛ لا بيـــوت ولا متـــاجر ولا حتـــى أكمنـــة للشـرطة! مـاذا نفعـل فـي هـذا الظـلام وأيـن سـنبحث؟! العجيـب فـي الأمـر أننـا اسـتيقظنا فـور سـماع الصـرخات وشـعرت بجسـدها يُسـحب مـن بـين أحضـاني فكيـف تسـنى لهـا أن تختفـي بهـذه السـرعة فـي هـذا المكـان الـذي لا يوجـد بـه أي مكـان يصـلح للاختبـاء ولا حتـى صـخرة أو منحـدر أو فتحـة فـي قـاع الطريـق؟! أيعقـل أن تكـون قـد تخطفتهـا الطيـر؟ أم أن هنـاك ريحًـا أخـذتها وألقتهـا بعيـدًا؟ أم أنـه الجـن قـد اختطفهـا؟ أو ربمـا

انشـــقت الأرض وابتلعتهـــا، فـــلا تفســـير محتمـل لاختفائهـا السـريع هـذا إلا مـا ذكـرت! أيـن ذهبـتِ يـا مـأوى؟ كـل هـذا بسـببي، ليتنـي انتظـرت حتـى الصـباح. شـرعت فـي البكـاء وبكـت أمـي واحتضـنا بعضـنا وبقينـا فـي المكـان الـذي كنـا فيـه جلوسًـا وبقـي معنـا أخـي مـآب بينمـا ذهـب أبـي وعمـي وابـن عمـي كُـلٌّ فـي اتجـاه يناديهـا ويبحـث عنهـا، بعـد وقـت قصـير لكنـه مـر علـى قلوبنـا كأنـه سـنوات سـمعنا صـوت أبـي ينـادي عمـي وابنـه مـن مكـان بعيـد فهـرولا إليـه وبعـد قليـل عـادوا وهـم يحملـون مـأوى! مـا الـذي أصـابها؟ جلسـت أمـي علـى الأرض ووضـعوا مـأوى فـي حجرهـا وأخـذنا نحـاول إفاقتهـا دون جـدوى، بعـد حـوالي سـاعة مـن المحـاولات الفاشـلة شـهقت مـأوى بقـوة وفتحـت عينيهـا ونظـرت إلينـا برعـب شـديد، احتضـنتها أمـي بقـوة لتحـاول طمأنتهـا لكـن مـأوى دفعتهـا بعيـدًا عنهـا بقـوة غريبـة وهبـت واقفـة بخفـة وأخـذت تـزوم بفمهـا ثـم فجأة تحولت إلى..... حمامة بيضاء!

كيف هذا؟! هل ما رأيته هذا حقيقيًّا أم أنني أتوهم؟ هل تحولت أختي لطير حقًّا أم أن كل ما حدث لنا جعلني أهذي؟ استفقت من شرودي وتساؤلاتي على صوت شهقات أبي وصراخ أمي والبقية وقولهم جميعًا في آن واحد: مأوى! كيف أصبحتِ طيرًا؟!

كانت مأوى ترفرف بأجنحتها أمامنا وقد ارتفعت عن الأرض في مستوى أنظارنا، كانت الدموع تترقرق من عينيها وتحاول أن تنطق ولكن لا جدوى فكلما فتحت فمها صدر صوت هديل الحمام لا صوت البشر فازدادت دموعها انهمارًا، شعرتُ أن مأوى تنظر إلي تطمع أن أجد لها حلًا، حطت على كتفي وقربت رأسها من رأسي كأنها تريد ملاذًا وهذا الملاذ هو أنا! أمسكتها بين يدي برفق وجلست على الصخرة ووضعتها على قدمي فسكنت ثم وضعت كفي الأيمن على رأسها لأرقيها وبدأت في تلاوة سور وآيات من القرآن

الكريم، منذ بدأت قراءة شعرت بأن ريشها كالجمر تحت يدي ولكنني تحملت واسترسلت في الرقية بخشوع ويقين وهي تنتفض تحت يدي محاولة الهرب كأنما مستها الكهرباء وما زادني هذا إلا قوة ويقينًا واستمريت فيما أفعله حتى انتفضَتْ نفضة قوية اندفعت معها يدي للأعلى بقوة وسقطت بعدها أختي على الأرض ولم تمر سوى ثوانٍ حتى استعدنا مأوى مرة أخرى بفضل الله، جلست أمي بسرعة على الأرض وأخذتها بين أحضانها وكانت مأوى لا أدري هل هي نائمة أم في حالة إغماء ولكنني لم أكتفِ بما حدث وجلست على الأرض أمامهما ووضعت كفي على رأسها واستمريت بالرقية حتى أتممتها ثم رقيتها برقية النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ "رقية الريق"، وبعد دقائق مرت كأنها سنوات استفاقت مأوى ونظرت إليّ نظرة شكر فسألتها: أأنتِ بخير يا مأوى قلبي؟

حاولت النطق وقالت بهدوء بصوت بالكاد يخرج من أعماقها: الحمد لله رب العالمين، الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن.

سألها أبي بلطف: ماذا حدث لكِ يا ابنتي؟

قالت مأوى وقد بدأت دموعها بالهطول: كنت نائمة مثلكم فرأيت في منامي شخصًا يرتدي السواد ووجهه أسود يشع نارًا وعينيه كأنهما جمرتين، اقترب من وجهي وفتح فمه ونفث في وجهي فخرج من فمه هواءً حارًا ورائحة نتنة لم أشم مثلها قط فحاولت الصراخ لم يخرج صوتي إلا بعد معاناة وجهد فخرجت صرخة قوية من أعماقي استيقظت على أثرها فشعرت بشيء يمسك يدي ويسحبها بقوة وبسرعة رهيبة حتى وجدت نفسي بعيدًا عنكم فرأيت ذلك الرجل مجددًا أمامي فصرخت فصرخ هو الآخر في وجهي فسقطت أرضًا ولم أشعر بنفسي إلا وقد تحولت لتلك الحمامة فأخذت أرفرف بأجنحتي بقوة

لعلي أتحرر من قيود ذلك الجسد الذي تحولت إليه فلم أستطع سوى البكاء، وقتها تذكرت أحلام جميع الأطفال والكبار أيضًا بالتحول إلى طير ليستطيعوا التحليق عاليًا ولكنهم لو علموا ما عانيته في تلك اللحظات لما تمنوا تلك الأمنية البشعة قط، حقًّا الحمد لله الذي خلقنا بشرًا، حاولت أن أتحدث لم أستطع فاقتربت من ملاذ وأنا على ثقة أنها ستحسن التصرف وأنا بداخلي أدعو الله أن ينجيني مما أنا فيه وقد استجاب كما وعدنا وألهم ملاذ بأن ترقيني وجعلها سببًا في شفائي، فله الحمد ربنا الرحيم.

كنت في داخلي أشعر برهبة أثناء قص مأوى علينا ما حدث لها، فأنا أعرف أن ما رأته هو شيطان وقد تلبس بها وتسبب في تحولها إلى طير، فشعرت أن هذا المكان الذي نحن فيه غير طبيعي ويسكنه الجن والشياطين ولا ينبغي أن نظل به لحظة واحدة، أمسكت بيد مأوى لأساعدها على

الوقوف على قدميها وقلت لهم: يجب أن نرحل من هنا على الفور دون توانٍ، هذا المكان خَطِر، هيا لنتحرك سريعًا ولنتشابك الأيدي ولا يترك أحدنا الآخر، والأهم من ذلك أن نذكر الله ونتلو المعوذتين وآية الكرسي طيلة طريقنا حتى ينبثق الفجر ليحفظنا الله من شر ما لا نعلم.

رأيت التساؤلات تملأ أعينهم وألسنتهم ترغب في طرحها لكنهم يعلمون أنني عندما أتحدث بهذه الثقة فهذا يعني أن الأمر جلل ويجب أن ينفذوا ما أقول حتى لا يحدث ما لا يُحمد عقباه، بدأنا في المسير نحث الخطى بأقصى سرعة استطعناها وقد توسطتنا مأوى لخشيتنا عليها وألسنتنا تلهج بذكر الله وتلاوة آيات كتابه حتى انبثق الفجر بعد مدة فتيممنا لعدم وجود ماء معنا واجتهدنا في معرفة اتجاه القبلة وصلينا الفجر ثم أكملنا المسير ونحن نتلو أذكار الصباح حتى

رأينا من بعيد علامات العمران! نعم إنها قرية، يا الله! أخيرًا سنجد بشرًا.

اقتربنا من القرية وقد هبت في أجسادنا طاقة عجيبة مصدرها الأمل في أن نكون قد وجدنا ملاذًا آمنًا، دخلنا القرية فوجدنا أهلها مشغولين في العمل ولكن كلما مررنا على أحدهم نظر إلينا بامتعاض واندهاش، اقترب رجالنا من أحد أصحاب المحلات وسألوه عن بيت نستأجره ومكان نعمل به ولكنه نهرهم وطردهم! تكرر الأمر مع عدد كبير من أهل القرية حتى رأينا بيتًا كبيرًا يبدو أكبر من جميع البيوت وحوله حرس فاقتربنا منه طمعًا في أن نجد فيه عملًا ولكن الحرس نهرونا بقوة فخرج صاحب البيت على أصوات الضجيج فسألنا من نكون فأخبره أبي بقصتنا ولكن رده كان عجيبًا أثار دهشتنا حيث قال: ....

الفصل الرابع
"مُشردون"

بعد أن أخبر أبي صاحب البيت بقصتنا والذي اكتشفنا أنه عمدة البلدة نظر إلينا بحدة وقال بصوت جهوري ساخر: لا تهمني قصتكم ولا ماذا حدث لكم فهذا ليس من شأني ولا أهتم له، بلدتنا هذه ليست للغرباء وهذا قانونها لن يدخلها أي غريب ويبقى فيها للَّيل وإن لم يخرج على قدميه برغبته أخرجناه على محفة نحو قبره، منذ الأزل وقد قرر أجداد أجدادي أن لا نخرج من قريتنا ولا يدخلها غيرنا، ألا نتزوج من خارجها ولا يتزوج منا غريب، أن نكتفي ذاتيًّا بإنتاجنا ولا نستعين بأحد، قريتنا لنا وحدنا ولن نخرق قوانيننا من أجل أحد مهما كانت ظروفه، لا مجال للقلوب هنا، والآن هل ستخرجون بإرادتكم أم نخرجكم رغمًا عنكم؟

وقتما أنهى حديثه أشهر جنوده أسلحتهم في وجوهنا فقال أبي والخوف علينا يعتريه: نعتذر منك يا سيدي، فلم نكن نعلم بقوانينكم ولا نطالبكم بخرقها من أجلنا، نحن غرباء عن المنطقة ولم نزرها قط وظننا أن كل البلاد ترحب بالغرباء فالمعذرة منكم، نأسف لإزعاجكم وسنغادر من فورنا.

أنهى أبي كلماته ونظر إلينا وهَمَّ بالخروج فمضينا خلفه ولم يوقفنا أحد، لم يَرِقْ لنا قلب، ولم تدمع علينا عين، نظرت حولي فإذ بالجميع يضحك ساخرًا منا! ألهذه الدرجة الكل قاسٍ هنا؟ أيحترمون القانون أكثر من الإنسانية؟ أليس منهم رجل رشيد؟!

تركنا تلك البلدة المشئومة ومضينا في طريقنا وبدأنا رحلة البحث عن قرية أخرى يكن لنا فيها مأوى، مضينا والجوع يقرص أحشاءنا والعطش يكوي حلوقنا

وحرارة الشمس تحرقنا، لا ماء ولا طعام ولا مأوى ولا قلب يحنو علينا! ماذا عسانا أن نفعل؟ ليتنا ما جئنا إلى هذه الدنيا القاسية، ليتنا كنا في بيتنا وقت انهدامه وانتهت حياتنا كما انتهت حياة العمة مأمن وارتحنا من هذا الهوان.

"ما هذا الذي تقولينه يا ملاذ؟ أتعترضين على قضاء الله؟ استغفري ربك يا فتاة فإن تاهت بك السبل وخذلك كل البشر فوحده هو ملاذك دونهم، هو ربك المنعم الرزاق، هو العلي القدير رب المعجزات، أتنسين فضله ومع أول أزمة تمر بك تقنطين وتتمنين الموت؟" هكذا خاطبتني نفسي والحمد لله أن جعلها تُذَكرني بالخير ولا تعينني على الشر.

طال بنا الطريق وأُنهكت أجسادنا وجُلنا بأبصارنا نبحث عن منطقة ظليلة نستريح فيها لم نجد، أفي هذا العصر ومع زيادة أعداد السكان المهولة هذه ولا نجد قرى

متقاربة؟! مئات الأميال مشيناها منذ تركنا تلك القرية وحتى الآن لم نجد قرية واحدة؟ معهم حق يكتفون ذاتيًا فسواء كان هذا فرضه قانونهم أم لا فستفرضه عليهم هذه العزلة، يا الله! نحن حتى لا نعرف هل آن وقت صلاة العصر أم لا، لقد صلينا الظهر منذ مدة ولكن ما زالت الشمس حارة! لا أدري من أين أتت تلك الصحراء وقد كنا بمنطقة زراعية؟ لقد تعبت من المشي: أبي، فلنجلس لنستريح قليلًا، لقد تقرحت أقدامي.

فقال مآب بحرقة: إلى متى سنظل هكذا؟ ألن يأوينا بيت أبدًا؟

ردت أمي بلهفة: لا تقل هذا يا بني، تفاءل بالخير تجده.

قال عمي مأمون بيقين: والله لن يضيعنا الله أبدًا، إنما هو ابتلاء، فلنصبر ولنا

الأجـر والعـوض الجميـل بـإذن الله، ولا نـدع لليـأس ثغـرة يـدخل منهـا قلوبنـا فنقـنط ونخسر الدنيا والآخرة.

قـال أبـي: وهـل بعـد الصـبر إلا حـلاوة الجبـر؟ كـل محنـة تعقبهـا منحـة يـا بنـي، ومـن رضـي فلـه الرضـا ومـن سـخط فلـه السـخط، ولا نقـول إلا مـا يرضـي ربنـا، وإنـا لله وإنـا إليـه راجعون.

وقالـت مـأوى بامتنـان: لقـد رأيـتم كيـف أنقـذني الله ممـا حـدث لـي، هـو إلهنـا الـرحيم لا ينسـانا ولا يتركنـا نتيـه ونضـيع، بـل يرسـل علينـا سـحائب لطفـه فـي أحلـك لحظاتنا، كيف ننساه وهو لم ينسنا قط؟!

قلـت لهـم: اعـذروا مـآب، فمـا رآه لـيس بقليـل، وقلوبنـا جميعًـا اعتراهـا الضـعف ممـا حـدث فـي الليـالي الماضـية فلنرممهـا بـذكر الله ونتـرك أمرنـا لـه وحـده يـدبره لنـا، نحـن

فقط علينا أن نأخذ بالأسباب ونستمر في البحث ونسأله أن يهدينا سبيل الرشاد.

حرك الجميع رؤوسهم موافقين لما قلته إلا موئل ابن عمي كان صامتًا طوال الوقت ولم يحرك ساكنًا، تكاد تشعر أنه غير موجود من شدة هدوئه، هذا ليس نفسه موئل الذي كان مصدر المرح والنشاط لبيتنا، بيتنا! وأين بيتنا؟ لقد انهار بيتنا وانهارت معه آمالنا، فقدنا معه مأوانا وسعادتنا وراحتنا، فقد موئل أمه ومرحه، بين ليلة وضحاها تبدلت أحوالنا كليًّا وأصبحنا مشردين في الأرض نبحث عن بيت وعمل، ولكن الله مَنَّ علينا وما زلنا معًا وِحدة واحدة، روحًا واحدة في سبعة أجساد، فنسأل الله دوام هذه النعمة فهي أفضل وأبقى من نعمة البيت والسكن، والأهم من كل ذلك أننا نمتلئ باليقين كل لحظة بأن فرج الله قريب.
هدأت الشمس فعرفنا أنه وقت العصر فصلياه اجتهادًا وبعدها مضينا في طريقنا

وما زلنا لم نتناول أي طعام أو ماء ولكننا صابرين محتسبين، مَشَيْنَا ما يقارب الساعتين وقد أوشك وقت المغرب على الدنو وبعدها سيحل الليل ولا ندري أين سنبيت ليلتنا هذه أيضًا، وصلنا عند مفترق طرق فسمعنا صوت سيارة تقترب فنظرنا إلى بعضنا البعض باندهاش وأعيننا تتساءل هل ما نسمعه هذا حقيقة أم سراب؟ لم تمر سوى لحظات واكتشفنا أن ما سمعناه حقيقة بالفعل وليس سرابًا! لقد اقترب منا جرار زراعي له مقطورة خلفية، ولأن صوت الجرار يكون عاليًا سمعناه، توقف الجرار أمامنا فإذ به يحمل سائقه ورجلين يجلسان بجواره أحدهما يبدو عليه الثراء فتحدث قائلًا: من أنتم؟ ولماذا تسيرون على أقدامكم في هذا الطريق القاحل؟

أجابه أبي بقصتنا باختصار فتعاطفوا معنا وظهر ذلك جليًّا على ملامحهم فقال الرجل الثري: لا تقلق يا رجل، إن قريتنا قريبة

ولدي بيت قديم قد انتقلت منه مؤخرًا إلى بيتي الجديد، سأؤجره لكم ولن آخذ منكم إيجاره الآن ريثما تستقرون في عملكم وتتمكنون من دفع حق الإيجار.

شعرنا فجأة جميعًا بشعور خفي ربما هي السعادة التي سمعنا عنها كثيرًا! حمدنا الله بصوت عالٍ ثم قال أبي: أشكرك يا سيدي على هذا الكرم، ولكن ليس لدينا عمل وربما أخذنا وقتًا طويلًا لنجده، فهل ستصبر علينا؟

قال الرجل بثقة: ومن قال لك أنك لم تجد عملًا؟ العمل موجود بالفعل عندي في مزرعة الفواكه الخاصة بي، فقد بدأ موسم الحصاد وأحتاج عمالًا، هيا اصعدوا إلى المقطورة لنعود إلى البلدة قبل حلول الظلام.

توجهنا إلى المقطورة من الخلف وصعدنا إلى ظهرها فتحركت فور أن انتهينا،

جلسنا في قعرها وأخذنا نحمد الله على جبره لنا وكلنا شعور بالبهجة والامتنان، ولكن شيئًا ما بداخلي كان قلقًا ويخشى القادم، ترى هل ستتحسن أحوالنا أم ستسوء أكثر؟

الفصل الخامس
"وأخيرًا بيت"

حياتنا كبشر تتأرجح دائمًا بين شقاء وراحة، حزن وفرح، يأس وأمل، شدة ورخاء، كسل ونشاط، اكتئاب وسكينة، خوف وطمأنينة؛ كلها مشاعر قد تظل للحظات وقد تبقى لأعوام، لكن ما نتفق عليه هو أنه لا شيء يدوم للأبد؛ فتلك المشاعر التي نظنها سيئة أو سلبية هي مقدمات لتلك المشاعر المبهجة الإيجابية، فقط علينا الصبر والرضا والاقتناع التام بقول نبينا -صلى الله عليه وسلم-: "وفي كل لكم خير."، نعم، كل ما في ظاهره شر هو رحمة لنا من شر أكبر كان لينالنا لو لم يحدث هذا الشر الصغير ولكننا نحن البشر خُلقنا من ضعف وعَجَل؛ نتمنى الخير دائمًا ونكره ما يعكر صفو حياتنا، نريد العيش في سلام للأبد ونسينا أن لا شيء يدوم، نحب الحياة ونسينا أن مآلنا

إلى الموت مهما طال بنا العمر، نريد أن نظل أقوياء منعمين ونسينا أن لا حياة بدون منغصات وتقلبات، نريد الدنيا والآخرة معًا ولكننا تكالبنا على الدنيا وأهملنا العمل للآخرة، اتبعنا شهواتنا ونسينا أنها بوابة إبليس وأن الدين يتعارض مع الشهوات المحرمة؛ هكذا هو الإنسان طماع! يهبه الله كل خير فيطمع فيما ليس له، أو يمنع عنه ربه خيرًا آخر فيعترض ويجزع ويحاول الحصول عليه بالقوة دون وجه حق، ولكن أنسينا إلهنا الحق؟ من لا تضيع عنده الحقوق لن يدع الظالم يهنأ بظلمه، ولن يدع المظلوم يكابد مرارة الشعور بالظلم إلى الأبد.

بعد حوالي نصف ساعة وصلنا إلى قرية هؤلاء الرجال، تبدو كبيرة عن تلك القرية السابقة ولكن البيوت هنا كلها كبيرة وتتكون من طابقين ومدخل كل طابق من جانب غير الآخر، البيوت متلاصقة وكل بيت بلون ولكنها ألوان بهتت من تأثير

عوامل الزمن رغم أن البيوت ليست قديمة جدًا فتتراوح أعمارها بين العشر سنوات والخمسة عشر سنة، أنزلنا الجرار أمام بيت أكبر من كل تلك البيوت وأحدث منهم فيبدو أنه تم الانتهاء من تشييده منذ شهر أو أقل، يتكون من ثلاثة طوابق ولكن لهم مدخل واحد، البيت محاط بسياج من أشجار الزينة مما يعطيه شكلًا بديعًا مريحًا للنفس، طلب منا الرجل الثري والذي يمتلك هذا البيت الهبوط من الجرار ودخول البيت فلبينا طلبه بعد إلحاح، ولكن ما أثار ريبتي هي نظرة سائق الجرار والرجل الآخر والتي تبدو لا تصدق ما تراه وتسمعه، عبرنا من البوابة الخارجية وتوجهنا نحو البيت والذي وجدته عكس الانطباع الأول عنه! فقد شعرت بعدم الراحة كلما اقتربت منه أكثر وخاصة عندما دخلته شعرت بالاختناق وتمنيت لو ننتهي سريعًا، أدخلنا الرجل غرفة الاستقبال ونادى خادمًا فأمره بإحضار الطعام فرفض أبي ولكن الرجل أصر، أتى

الطعام فتناولناه وقد تركنا الرجل وذهب، انتهينا من الطعام والذي حرصنا كل الحرص على أن نأكل ما يسد جوعنا فقط وألا نأتي عليه بنهم ثم حمدنا الله على ما أنعم به علينا من واسع فضله، أتى الرجل فنادى الخدم حملوا الطعام وخرجوا ثم عادوا بأكواب الشاي فشربناها وبعدها قال لنا صاحب البيت: والآن أعرفكم بنفسي؛ أنا عبد الجبار الحَرَدُونِي، عمدة هذه البلدة والتي هي ملك لي توارثتها من آبائي فهي ملك لأجدادي منذ الأزل واسمها حردون نسبة لعائلتنا، أنا أغنى شخص هنا، فالقرية وبيوتها ملك لي ولأولادي، وكل أهل البلدة عمال لدي كما كان أجدادهم عمالًا لدينا في مزارعنا، تلك البيوت التي يعيشون فيها ملك لي أيضًا وهم مستأجرون؛ فكل بيت يتكون من طابقين تسكن كل أسرة طابق، الإيجار بسيط جدًا لا أثقل عليهم حتى يستطيعوا تربية أبنائهم والعيش من أجرتهم نظير عملهم لدينا، أنا لا أحتاج هذا الإيجار الضئيل وهو بالكاد

يكفي مصاريف الكهرباء والماء والغاز ولكن لا بد منه حتى مع الوقت لا يظنون أنهم يمتلكون تلك البيوت، إن مزارعي بعيدة عن البلدة بنحو الساعة نذهب إليها من عند مفترق الطرق الذي قابلناكم عنده وتلك نزرعها فاكهة وأما الأراضي حول القرية نزرعها محاصيل وخضروات، يوجد وكالة كبيرة في البلدة وهي ملكي أبيع فيها المحاصيل والخضر والفاكهة لأهل القرية طوال العام وأديرها بنفسي وأبيع ما يزيد عن حاجتنا في الأسواق الخارجية، ولدينا مزرعة كبيرة للمواشي ويعمل بها عدد من الرجال وتذهب الألبان إلى معمل صغير تعمل به بعض النسوة يصنعن السمن والجبن وباقي المنتجات ونبيعها لأهل القرية وتلك مهمة ابني الأكبر فهو يتولى الإشراف على المزرعة والمعمل والبيع، ولدي أيضًا وكالة نبيع فيها الأقمشة ويديرها ابني الأصغر وأما خياطتها فيوجد خياطة للنساء تخيط في منزلها وخياط للرجال يخيط في منزله

أيضًا ومكسبهم لهم، إنكم محظوظون لأنه لم يكن يوجد أي بيت خالٍ في البلدة حتى شهر مضى ولكنني انتقلتُ أنا وأبنائي في هذا البيت وتركنا بيتنا القديم وسأؤجر لكم الطابق الثاني، والآن بعد أن قصصت عليكم موجزًا صغيرًا يعرفكم على قريتنا هيا بنا إلى منزلكم الجديد لتستريحوا مما لقيتموه في أيامكم الماضية.

نهض الرجل وتوجه صوب الباب فخرج وخرجنا خلفه حتى اجتزنا البوابة الخارجية فتوجه يمينًا فمضينا خلفه والبيوت كلها قد أظلمت من الداخل فأخبرنا أن أهل القرية ينامون مبكرًا، كان الطريق مليئًا بأعمدة الكهرباء وقد أضاءت الطريق، سرنا قليلًا حتى وصلنا بيتًا على أطراف القرية يبدو أحدث من بيوت القرية فأخبرنا السيد عبد الجبار أنهم يجددون البيوت كلما تداعت، صعدنا السلم وفتح لنا باب البيت ودخل وأمرنا بالدخول، أضاء المصابيح فرأينا بيتًا

واسعًا ذو صالة صغيرة وغرف كثيرة، شعرنا بسعادة لا توصف وامتنان وشكر لله على هذا العوض الجميل، جلس الرجل وطلب منا الجلوس وكان في صالة البيت بعض الكنب ثم قال: في الفجر بإذن الله أريد من الرجال أن يأتوا أمام منزلي الجديد ليستقلوا الجرارت من هناك حتى المزرعة، أما النساء فعندما تستيقظن اهبطن للأسفل وتحدثن مع الجارات وستعرفن منهن كيف تُدِرْن أموركن فالحياة هنا مختلفة، ليس في البيت طعام فخذ يا معتمد هذه أجرة أسبوع مقدمًا عن عملكم لتستطيعوا العيش -ومد يده بأموال أعطاها لأبي- وكما قلت لكم مسبقًا لا أريد أجرة البيت هذا الشهر، الرجال يتناولون طعام الإفطار والغداء في المزرعة أما العشاء فيتناولونه مع أسرهم.

سأله أبي: هل هناك جامعات ومدارس قريبة؟ فقد اقتربت الدراسة ولا أريد أن يضيع العام على الأولاد.

قضب الرجل ما بين حاجبيه وقال: جامعات ومدارس! لدينا كُتاب هنا يتعلم فيه الأطفال القرآن والقراءة والكتابة وفقط، لا توجد مدارس قريبة ولا يدخل أحد عندنا المدارس فلا تخبروا أحدًا أنكم قد تعلمتم حتى هذه الدرجة، وهذا إنذار لكم.

ثم نهض وودعنا وخرج وأغلق الباب خلفه وتركنا متعجبين من ردة فعله وإنذاره.

أمرنا أبي بالتوجه للنوم لنرتاح مما تعرضنا له من قبل، فتحنا الغرف فوجدناها بحال جيدة ولكن تحتاج لتنظيف بالطبع، في الصباح بإذن الله نفعل، نمنا فور أن وضعنا رؤوسنا على الوسادات ولم نشعر بالوقت إلا عند سماع صوت أذان الفجر، نهضنا وذهب الرجال للمسجد للصلاة ثم التوجه للعمل وتركونا لندبر أمر المنزل وقد ترك أبي المال لأمي، بعد

خروج رجالنا تجولنا في المنزل نبحث عن المطبخ فوجدنا غرفة صغيرة في نهاية المنزل بجوارها حمامين فدخلنا الغرفة فوجدنا أنها هي المطبخ والذي يوجد به غاز طبيعي وموقد متصل به وثلاجة كبيرة قديمة وبعض أدوات الطهي، بحثنا عن حوض للمياه أو صنبور لم نجد فدخلنا الحمامات لم نجد أيضًا أي أحواض أو صنابير! ما هذا؟ أين تلك المياه التي تحدث عنها؟! وجدنا جرادل فارغة في الحمامات والمطبخ فأمرتنا أمي أن نأخذها ونخرج نبحث عن أي مصدر للمياه أو نسأل الجارات كما أخبرنا عبد الجبار، أخذناهم وخرجنا وكان النهار قد انبثق فهبطنا السلم ونظرنا حولنا فوجدنا أن البيوت متراصة بجوار بعضها على اليسار إذا وقفت أمام بيتنا باتجاه البلدة وعلى اليمين الحقول، تحركنا قليلًا ونحن ننظر حولنا فوجدنا بعض النسوة يخرجن من بيوتهن فوقفن ينظرن إلينا نظرات متسائلة فاقتربنا منهن وألقيت عليهن

السلام وسألتهن عن مصدر للمياه فسألنني بتعجب: من تكونان ومتى أتيتما؟

أخبرتهن في عجالة عما حدث فتعاطفن معنا وابتسمن لنا وقلن أنهن ذاهبات لمصدر المياه وطلبن منا المضي معهن حيث هو، أخبرننا أن بعد كل عشرة بيوت يوجد مصدر للمياه وهو عبارة عن حوض كبير به عشرة صنابير وأنهن يأخذن الجرادل فيملأنها منه ويأخذن أيضًا الأواني والملابس فيغسلوهم هناك، قالت النسوة أيضًا أن الأمر مرهق لكنهن يقضين بعد الوقت اللطيف معًا يمزحن ويتحدثن ويتبادلن المعلومات حول الطهي وغيره. سألتهن أين المكان الذي يبيع اللحم ومنتجات الألبان فوصفنه لي، وصلنا مصدر المياه أخيرًا والذي يسمونه "الحوض الكبير"، ملأنا الجرادل وعدنا إلى البيت فجمعنا الأواني وذهبنا لغسلها ثم عدنا مجددًا أخذنا أموالًا وحقيبة فارغة

وذهبنا إلى الوكالة فاشترينا منها الخضر والدقيق والأرز والفاكهة، والحمد لله وجدنا الباعة فقط ولم نجد صاحبها السمج، توجهنا بعدها إلى المعمل فاشترينا اللحم والبيض واللبن والجبن والسمن والدجاج فهم ينظفونه ويبيعونه جاهزًا للطهي، وصلنا البيت تركنا لأمي مهمة الطهي ثم بدأت أنا وأختي بتنظيف المنزل والذي أنهيناه عند حلول المغرب وقد أنهكنا العمل ولكنه إرهاق أخف وأحب إلينا من إرهاق السير دون دليل في البحث عن مأوى، الأموال المتبقية لا تكفي لشراء أقمشة لنصنع منها ملابس نرتديها بدلًا من تلك التي نرتديها منذ انهار بيتنا ومع ذلك حمدنا الله على المأوى والمأكل والمشرب الذي رزقنا إياهم دون حول منا ولا قوة.

مضى شهر ونحن على نفس المنوال وقد استطعنا بفضل الله ادخار مبلغًا من المال اشترينا به أقمشة وخِطناها لكل منا طاقم

واحد ولكنه يكفي أن نقوم بالتبديل بينه وبين الذي عندنا حتى يفرجها الله، شعرنا أخيرًا أننا بشر عاديون لدينا بيت يأوينا وطعام نأكله وملابس نرتديها، يا الله! كم أن هذه النعم كنا نمتلكها ولم نشعر بقيمتها إلا عندما فقدناها! والله إننا لنستيقظ كل يوم نبدأ يومنا بحمد الله على أن كفانا وآوانا وأطعمنا وسقانا وكسانا، ليتنا نشعر بقيمة النعم في السراء كما نستشعرها في الضراء.

ولأن الحياة ليست دائمًا وردية ولا بد لها من منغصات فقد بدأت تلك الحياة الجميلة بالتداعي وليستر الله مما هو قادم.

الفصل السادس
"خاطب!"

قالت أمي يوم التقينا بعبد الجبار: "إن له من اسمه نصيبًا؛ فقد جعله الله سببًا في جبر خواطرنا بهذا البيت والعمل، جبر الله خاطر هذا الرجل الطيب." مسكينة أمي، طيبتها هذه فاقت الحدود، ظنت المسكينة أنه جابر عثرات الكرام ولكنه ليس كذلك أبدًا، تدعو له بالجبر! وأنا أدعو له بالكسر والمذلة، ليتنا ما التقينا بهذا الجبار العتيد.

بعد شهر واحد من إقامتنا في قرية حردون ظهر ذلك الحَرَدُون على حقيقته، كنت أتعجب من لقب حردون كيف يلقبون به شخصًا حتى اكتشفت أنهم يستحقون هذا اللقب؛ فهذه الكلمة معناها أنه شخص منبع للشر ويظهر عكس ما يبطن، جبار عتيد بالفعل، اسمه كاملًا يعبر عن شخصيته الرثة، يبدو أننا لا نقابل إلا الأشرار فقط.

ذات يوم كنت عند الحوض الكبير أنا وأختي وبعض النسوة فتفاجأنا بعبد الجبار ألقى علينا السلام ووقف ينظر إلينا، تهامست النسوة مستهجنات فعله هذا وكيف أنه لم يفعله من قبل وهو شاب فكيف يفعله وهو شيخ كبير؟ كيف يقف في مكان اجتماع النسوة وقت عملهن واللواتي لا ينبغي أن يرَهُن أي غريب وهُنَّ عند الحوض وقد كن يأتين إلى هنا ويذهبن في أمان؟ بل ما الذي جعله يترك حصاد زروعه وهو لا يأمن لأي شخص؟ هكذا تهامست كل واحدة منهن بينما أمسكت مأوى في ذراعي واختبأت خلفي في خوف، أما أنا فنظرت له باستحقار له ولنظراته السمجة التي لا تخرج إلا من مراهق عوضًا عن شخص بمثل سنه ومقامه بين أهل قريته، يا له من حقير! وجدني أنظر إليه فابتسم لي ابتسامة واسعة وقال: كيف حالك يا ملاذ؟ هل أعجبكِ بيتي؟ وهل أحببتِ قريتي؟

قلت له بتحد: كانت قريتك تعجبني أما اليوم فلم أعد أشعر فيها بالراحة.

ثم تركته وأخذت أختي وأشياءنا وتوجهنا نحو البيت؛ بيته الذي يذلنا به أمام الناس.

عندما وصلت البيت كنت حانقة وقد احتقن وجهي بالدماء من شدة الغيظ فسألتني أمي عما أصابني فلم أستطع أن أجيبها فأخبرتها مأوى وهي ما زالت خائفة ترتعد بما حدث فتعجبت أمي من صنيعه وعزمت أن تخبر أبي فأخبرتها ألا تفعل خوفًا من أن يغضب ويجعلنا نترك القرية ونتهجر مرة أخرى، وافقت أمي على مضض وهي تخشى أن تخبر أبي وتخشى أيضًا ألا تخبره.

في المساء عاد أبي والهم يعتلي وجهه فسألته أمي عما أصابه فقال: لقد تقدم خاطب إلى ملاذ.

سألتُه بتعجب: وما الذي يجعلك مهمومًا هكذا يا أبي؟! ارفضه كالعادة، فأنت تعلم أنني لن أتزوج.

قال وهو ينظر في الأرض بحزن شديد: لم أستطع أن أرفضه.

سألته بتعجب: ولماذا؟! ما المميز فيه عن سابقيه لتتمسك به هكذا؟

أجاب أبي باستنكار: لست متمسكًا به، ولا أريده نهائيًا.

سألته بدهشة: عجبًا لك يا أبي! كيف لا تريده وأنت تقول أنك لا تستطيع رفضه؟!

أجاب بحسرة: لأن من تقدم لك هو صاحب هذه البلدة.

ازداد تعجبي وتحول إلى بلاهة فسألت أبي: أتقصد أن عبد الجبار هذا طلب يدي لأحد أبنائه؟

اغرورقت عينا أبي بالدموع والتزم الصمت ولم يستطع أن يُجبني فازدادت حيرتي وشعرت بوجيف في قلبي فسألته مرة أخرى بصوت بالكاد يخرج من حلقي: من هو الخاطب يا أبي؟

نظر لي أبي وقال بصوت نبراته تنم عن قهر شديد وليس مجرد حزن: إنه عبد الجبار نفسه.

شعرت بأن الأرض تكاد تميد بي وأن العالم من حولي أصبح آلات تنطق ولا أستطيع تمييز الملامح ولا سماع الأصوات ولا حتى استطعت النطق ولكن لم أفقد الوعي وهذا ما زاد الأمر سوءًا فقد شعرت للحظات أنني داخل كابوس وربما

أفيق منه ولكن لا جدوى فالأمر واقع ولا بد من تصديقه، حاولت النطق أو حتى الإشارة بيدي لم أستطع فيبدو أن وقع الصدمة على أعصابي شديد وأفقدها القدرة على ردة الفعل. قلق أبي والجميع وأخذوا ينادونني ليحثوننني على النطق والتجاوب معهم لكن لم أستطع، حتى البكاء لم أتمكن منه، لا أدري ماذا حل بي؟ ربما هو نوع من الصدمة النفسية أو قد يكون شللًا! أخذوا يقولون أحضروا طبيبًا ولكنهم تذكروا أن هذا الجبار منع أهل القرية جميعهم من التعليم فمن أين لهم بطبيب؟! حاولت مأوى أن تفعل كما كنت أفعل معها وجلست بجواري ووضعت يدها على رأسي وأخذت تتلو الرقية الشرعية ولم تكل من ترديدها حتى استطعت بعد مرور وقت طويل تجاوز الساعتين أن أتحرك نوعًا ما ولكن ما زلت لا أستطيع تحريك لساني، ساندوني وأدخلوني الغرفة حتى أنام قليلًا فلربما أتحسن، ولكن أنى لي بالنوم وأنا في هذا الوضع ومع هذا

الـرأس الـذي تناطحـه الأفكـار دون هـوادة؟!
مـرت السـاعات تلـو السـاعات وأنـا علـى هـذه الحـال والجميـع جلـوس حـولي حتـى بعـد الفجـر فغلـبهم النعـاس فنـاموا مـن شـدة الإرهـاق، ولكننـي لـم أنـم ومـا زلـت شـاردة لا يتحـرك شـيء فـي جسـدي سـوى عقلـي بأفكـاره ولـم يخرجنـي مـن جلبـة التفكيـر هـذه إلا صـوت طـرق بـاب البيـت بقـوة ممـا أفزعنـي وأفـزع أهلـي فهـرول مـآب إلـى البـاب ففتحـه وبعـد لحظـات عـاد أدراجـه مسـرعًا وهمـس لأبـي فـي أذنـه بكلمـات لـم أتبينهـا ثـم خرجـا مسـرعين وتبعهمـا عمـي وابنـه، مـرت دقـائق فسـمعت جلبـة كأنهـا عـراك فهبـت أمـي مرتعـدة وهرولـت إلـى الخـارج وتبعتهـا مـأوى وقـد ازدادت الأصـوات واختلطـت فلـم أتبـين منهـا شـيئًا، حاولـت النهـوض لـم أسـتطع، حاولـت أن أُسـقط نفسـي علـى الأرض وأحبـو حتـى أخـرج إلـيهم ولـم أتمكـن، لـم تمـر سـوى لحظـات حتـى عـلا صـوت الضـجيج واقتـرب منـي وإذ بـه يـدخل الغرفـة والكـل مـن حولـه

يحاولون منعه! ما هذه الجرأة! كيف يدخل على فتاة نائمة ليست من محارمه بهذا الشكل الغاشم؟! إن هذا الجبار لا يعرف للبيوت حرمة ولم تُخضب وجهه حمرة الحياء قط، يا له من مَقيت!

نظرت له بحدة وغيظ لأنني غير قادرة على ردعه فنظر إلي وقال ببرود: لم تكذبوا وهي مريضة بالفعل، ولكن هذا لن يمنعني من الزواج بها.

ثم وجه حديثه إلي وتابع بتحد: ستتزوجينني عاجلًا أم آجلًا، رغبة منك أو رهبة لا يهمني، ولكن ما يهمني أنني لم أرغب بشيء إلا وحصلت عليه وسأحصل عليك أنت أيضًا، لذا من الجيد لكِ أن تتجاوزي هذا المرض وتتعافين سريعًا حتى نتم هذا الزواج وإلا... وإلا لن تنعموا بلحظة هناءة بعد الآن.

قال تهديده هذا وغادر مسرعًا وتركنا نتخبط في حيرة؛ أهلي لا يدرون ماذا يفعلون، وأنا لست قادرة على التعبير عن غضبي أو حتى ألمي.

تكلمت أمي بعد دقائق طوال من الصمت وقالت بنبرة متعجبة: أهذا من كنت أدعو له وأقول عنه أنه اسم على مسمى وجبار للقلوب؟! إنه بالفعل اسم على مسمى ولكنه جبار طاغية، ألهذه الدرجة لا يوجد في قلبه رحمة؟!

حاولت النطق لأسألهم ماذا قال أو فعل لأنني لا أفهم ماذا حدث والحمد لله خرج صوتي أخيرًا ولكن الحروف ثقيلة ولساني يؤلمني مع كل حرف أنطقه لكنني تحاملت على نفسي وسألتهم: ماذ قل؟
خرجت كلماتي ثقيلة مبتورة الأحرف ولكن هي كل ما استطعت لفظه وأعتقد أنهم فهموا ما أردت السؤال عنه، ابتسموا عندما نطقت لعلهم أمِلوا أنني شُفيت لكن

ابتسامتهم تشوبها الأحزان لعدم اكتمال شفائي وبسبب ما قاله لهم هذا الطاغية والذي لم يجرؤ أي منهم على إخباري بما قاله سوى موئل ابن عمي الذي نطق أخيرًا بعد أن طال صمتهم وأخبرني بما كنت أتوقعه من هذا الجبار ولكن ما كنت أتوقع أنه بهذا القدر من الشر!

الفصل السابع
"طرد"

بدأ موئل يسرد ما حدث فقال موجهًا حديثه لأبي وأبيه: هذا الرجل لم يرتح له قلبي قط منذ رأيته، لقد رأيتم كيف يعامل العمال بقسوة وأخبرتكم أنه شخص قاس مريب فقلتم أنه طيب معنا ولم نرَ منه في حقنا ما يجعلنا نظلمه ولربما يقسو على العمال حتى لا يتهاونوا في عملهم، وها هو قد ظهرت حقيقته، فهل صدقتموني الآن؟!

ثم وجه حديثه إلي قائلًا: لقد نادى أباكِ بالأمس قبل أن نعود إلى البيت وتحدث معه قليلًا ولاحظت تغير وجه أبيكِ والحزن قد اعتلاه فظننت أنه قد طالبه بمستحقات إيجار المنزل فسألت أباك بعد أن تركه وذهب عن سبب طلبه له فأخبرنا أنه طلبك للزواج، وعندما أخبره العم أنك ترفضين

الـزواج حتـى تسـاعديننا فـي المعيشـة ولأننـا لا نتحمـــل مصـــاريف تجهيـــزات الـــزواج أخبـره أنـه مسـتعد لتحمـل كافـة مصـاريف الـزواج ومصـاريفنا نحـن أيضًـا، ولكـن أبـوكِ أخبـره أنـكِ ترفضـين فكـرة الـزواج مطلقًـا فـأخبره بنبـرة هادئـة لكنهـا تحمـل التهديـد بـين طياتهـا وقـال: "سـتجعلها توافـق وتخبرنـي فـي الغـد بموافقتهـا ونـتم العـرس بعـد أسـبوع، فالأفضـل لـك أن تجعلهـا توافـق، هـذا إن كنـت لسـت مسـتعدًا لمـا هـو أسـوأ." ثـم تـرك أبـاك وذهـب ولكننـي قلـت لأبيـك أننـي أرفـض الفكـرة حتـى لـو كـان مآلنـا التهجيـر مـرة أخـرى وأننـي متأكـد أنـك سترفضـينها حتمًـا، وحـدث مـا توقعتـه ولكنـك مـن الصـدمة حـدث لـك مـا حـدث ولـو كنـت أعـرف أنـه سـيحدث مـا تركـت أبـاك يخبـرك بـالأمر، وهـا هـو اليـوم عنـدما تأخرنـا ولـم نـذهب إلـى العمـل لـم ينتظـر للغـد بـل أتـى ليعـرف الـرد وقـد توقـع أن سـبب غيابنـا هـو الـرفض التـام لطلبـه، عنـدما أخبـره العـم بمرضـك لـم يصـدقه واتهمنـا جميعًـا

بالاحتيال لنعيش هنا دون أن يتم الزواج فارتفع صوته فأقسمنا له أن العم صادق ولكنه هددنا أنه سيتزوجك رغمًا عنك وإلا سيفعل ما لا نتوقعه، واقتحم المنزل ودخل غرفتك ليتأكد من مرضك رغم منعنا له لكنه لم يأبه لنا وها هو قد هددك أنت الأخرى رغم أنه تأكد أنك في حالة صدمة، والآن أرى أن نحمل أمتعتنا ونترك هذا المكان ونبحث عن مكان آخر آمن ولا يوجد به شخص كهذا الجبار.

ترقرقت الدموع في عيني ونظرت لأهلي وقلبي يتمزق حزنًا على حالهم وخوفًا عليهم من مصير ذقناه من قبل ونخشى أن نذوقه مجددًا ولم نسترح منه بعد، فقررت أن أضحي بنفسي حتى يستطيعوا العيش بسلام، استجمعت قواي وحاولت النطق بصعوبة لكي يخرج كلامي مفهومًا قويًّا لا مجال فيه للتراجع وقلت موجهة حديثي لأبي الذي أرى في عينيه نظرتيّ انكسار

وضعف تمنيت لو فارقتُ الحياة قبل أن أراهما بسببي يحتلون عينيه: أبي.
نظر إلي بترقب لما سأقوله وربما رهبة وأشار برأسه لأستمر في حديثي فتابعت: أخبر عبد الجبار أنني أوافق على الزواج منه.

تحولت نظراتهم جميعهم إلي وقد جحظت أعينهم غير مصدقة لما قلت وغير مرحبة به فقال أبي بحزم: لا يا ابنتي، لن أدعك تُضحين ببقية عمرك من أجلنا، يكفي ما مضى من عمرك وسعادتك التي ضحيتِ بهما في سبيلنا دون توان أو جزع، هذه المرة نحن من سنضحي من أجلك لا أنت.

أنهى أبي كلماته ثم نهض من مجلسه وقال وهو يتجه ناحية باب الغرفة يخاطبنا جميعًا: أنا ذاهب إليه لأخبره أننا لن نخنع له، ولن نوافق على طلبه، وليفعل ما يشاء، أما أنتم فجهزوا أغراضنا لنترك هذه البلدة ريثما أعود.

خرج أبي مسرعًا ولم يترك لي فرصة للاعتراض فناديته لم يُجبني، أخبرت عمي وأخوَيَّ أن يذهبوا خلفه ليقنعوه بالتراجع ولكنهم رفضوا، فحاولت النهوض لألحق به أنا فمنعوني ونهرني عمي غاضبًا: ابقي مكانك، لن تذهبي لأي مكان، قال أباك كلمته وكفى وأنا أتفق معه، هل ستعترضين على قرار أولياء أمرك؟ هل تظنين أنك تستطيعين فعل أمر لا نرتضيه نحن؟

أجبته وأنا أبكي: أنتما تحملتما الكثير، ولأنكما الكبار تستطيعان التضحية والتحمل أكثر من أجلنا، ولكن ما ذنب هؤلاء -وأشرت لأخي وأختي وابن عمي- من حقهم أن يستريحوا من الانتقال من بلد إلى بلد، من حقهم أن يشعروا بالاستقرار والراحة والأمان، لا يهم أنا، الأهم هو أنتم وراحتكم، أنا واحد وأنتم

جماعة ومصلحة الجماعة تُقَدَم على مصلحة الفرد.
تحدث أخي مآب وقال: ألست أصغركم؟ لكنني أرفض وبشدة أن تتزوجي هذا الرجل لأجلنا، ثم أخبريني ما المميز هنا؟ لا شيء مميز، إنها تشبه القرى القديمة التي كانت أيام الأجداد، كما أنه يمنع الجميع من التعليم وأنا أريد أن أستكمل تعليمي ومن حق مأوى وموئل أن ينهيا تعليمهما وهما في عامهما الأخير فهل بعد اجتهادهما في التعليم كل تلك السنوات يتركانه وقد أوشكا على إنهائه من أجل بيت ليس ملكًا لنا وبلدة ليس لنا فيها أحد؟! من رزقنا طوال السنوات الماضية سيرزقنا في سنواتنا القادمة فالله هو الرزاق وليس عبد الجبار فكيف تتكلون عليه ونسيتم الخالق؟!

حينما تحدث مآب عن الله شعرت بضآلتي وقباحة تصرفي؛ كيف لي أن أخشى مخلوقًا والله هو الكافي؟! كيف لي أن

أنسى أن الله بيده مقاليد كل شيء وخزائنه لا تنفد؟! نحن في ابتلاء وبحول الله وقوته سنصبر لنؤجر في الدنيا والآخرة، ومن اليوم لن أخشى أحدًا فالله حسبي ووكيلي كما قال سبحانه: {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}، لم أستطع الرد وآثرت الصمت ولم تمر سوى دقائق قليلة حتى عاد أبي وقد هدأت ملامحه واعتلاها شعور بالرضا وقال لنا: هيا بنا نبحث عن مأوى آخر.

قالت أمي باستهجان: أبهذه السرعة؟! لم أحزم الأمتعة بعد!

ولكن أبي قال: لا داعي لذلك، لن نأخذ شيئًا معنا، ارتدوا ثيابكم التي أتيتم بها إلى هنا ولا تأخذوا معكم أي شيء غيرها.
تعجبت أمي وسألته: لماذا لن نأخذها؟! ألم نشتريها بأموالنا؟

أجابها أبي: أنسيتِ أننا لم ندفع مستحقات إيجار المنزل قط حتى الآن؟ لقد أمرني ألا آخذ من البيت شيئًا أو مما اشترياه وستكون عوضًا عن الإيجار.

قال عمي بغيظ: يا له من ظالم! لقد عملنا بهذه الأموال وتعبنا في جمعها ورفض هو بنفسه رغم محاولاتنا أن يأخذ مقابل المسكن إلى الآن حتى يستقر بنا الحال والآن يريد أخذ ممتلكاتنا عنوة.

قال أبي بنفاذ صبر: ما حدث قد حدث، اتركوا كل شيء فلنا الله ولن يتركنا، والآن هيا بنا، لا أريد أن أبقى في هذا المكان أكثر من ذلك، فلنبحث عن مكان آخر لعلنا نجد ما هو أفضل.

قالت أمي موافقة لرأيه: نعم، هيا بنا، لعلنا نصل إلى بلدة قريبة قبل حلول الليل.

ولكن أبي قال: لن نذهب إلى أي بلدة قريبة.

فسألته أمي بتوجس: ولمَ؟

فأجابها أبي بما صدمنا جميعًا: لأنه توعدني أن يخبر أصحاب القرى القريبة والبعيدة أن لا يتقبلونا بينهم لأننا أهل سوء وسنفسد عليهم أخلاقهم وحياتهم، قال لي أننا لن نهنأ بعد اليوم ولن نجد ملاذًا غيره وحتمًا سنعود إليه ونحن من سنطلب منه ونلح عليه بإتمام الزيجة فأخبرته أن هذا لن يحدث فقال: "لا تحكم قبل أن تجرب، فالتجربة ستثبت من الأقوى."

نهضت من سريري وقد دبت في جسدي القوة فجأة بحول الله وقوته وقلت لهم بحزم وثبات: هيا بنا نجرب كما قال، ولكن مهما حدث لن نحقق له مأربه، فلينتظر تحقيق حلمه للأبد فلن ينالـه أبدًا ما حييت

وسنرى من الفائز في النهاية؛ الظالم أم المظلوم، ولكنني على ثقة أنه لن يفوز أبدًا.

أنهيت كلماتي وخرجت من الغرفة فتبعوني وتركنا المنزل ومضينا في طريقنا دون النظر إلى الخلف وقد تبعتنا نظرات النسوة المتألمة لحالنا حتى وصلنا بداية القرية فوجدنا ذلك الجبار يجلس أمام بوابة بيته الجديد ويضحك ساخرًا وقال بصوت مستهزئ جهوري: ستعودون خانعين لا محالة، طال الوقت أو قصر ستعودون.

ارتفع صوت ضحكاته وظن أنه هزمنا ولكننا رفعنا رؤوسنا عاليًا ومضينا دون أن نلتفت إليه حتى خرجنا من القرية وتركنا أقدامنا تأخذنا في طريقها إلى حيث أراد الله.

الفصل الثامن
"ضيق رغم الرحب"

(مـلاذ ـ مـأوى ـ موئـل ـ مـآب) تلـك أسـماؤنا نحـن الأبنـاء، كلهـا بـنفس المعنـى وهـو المسـتقر وفـي لغـة العصـر تعنـي الـوطن بشـكل عـام أو البيـت بشـكل خـاص، ولكـن أيـن حظنـا مـن هـؤلاء؟! لا بيـت، لا قريـة، لا أقـارب، لا وطـن، ولا حتـى نسـتطيع أن نجـد خيمـة ولـو مـن قـش تجمعنـا تحـت ظلهـا! هـل هـذا مـا يسـمونه الفقـر؟ ومـا هـو الفقـر؟ الفقـر هـو أن لا تملـك قـوت يومـك ولا بيـت يأويـك ولا رداء يسـتر بـدنك، لـيس لـدينا بيـت ولا طعـام ولا مـاء ولكـن لـدينا مـا يسـتر أبـداننا والحمـد لله علـى هـذه النعمـة فهـي عظيمـة لـو تعلمـون، ربمـا فـي بعـض الأحيـان يعترينـا شـعور بـالألم لِمـا نحـن فيـه؛ شـعور بالرغبـة فـي الخـلاص والأمـل فـي الاسـتقرار والراحـة، بـل أحيانًـا نتمنـى أن تنتهـي أعمارنـا سـريعًا حتـى ننتهـي مـن هـذا العنـاء

ولكن حتى هذا الخيار ليس فيه راحة فستتعفن أجسادنا دون أن تجد من يُغسلها ويكفنها ويدفنها وكأنه كتب علينا أن نُحرم من المأوى في الحياة وبعد الممات؛ تلك المشاعر القانطة تعترينا كلما ضاقت صدورنا مما نحن فيه ولكن ما نلبث سريعًا أن نتذكر نعم الله السابقة علينا ونستشعر أفضاله اللامتناهية وأننا في ابتلاء طال أو قصر سينتهي ومن الأفضل لنا أن ينتهي ونحن صابرون حامدون شاكرون لله على أن ينتهي ونحن قانطون ساخطون فنُغضب الله ونخسر دنيانا وآخرتنا، يكفينا فضلًا عظيمًا من الله أنه منَّ علينا بأن لا زالت ألسنتنا قادرة على ذكره وقلوبنا لا زالت راضية مطمئنة أن كل ما نحن فيه هو خير وتمهيد لخير أعظم، ولا زالت أجسادنا قادرة على عبادة الله والسعي الحثيث على البحث عن رزقنا وتحصيله حيث قدره الله لنا ولم نتكاسل وانتظرناه أن يأتينا وحده، ومن أفضل النعم أيضًا أن وَحَّدَ الله قلوبنا وجعلنا وِحدة

واحدة لم تفرقنا الشدائد وإنما زادتنا قوة وترابطًا.

منذ خرجنا من قرية حردون ونحن نمضي في طريقتا لم نتوقف عن المشي إلا للصلاة رغبة منا أن نجد قرية قريبة قبل حلول الظلام وها نحن نرى ملامح قرية قريبة، أسرعنا الخطى حتى وصلنا إليها في وقت قصير وما إن اقتربنا منها حتى وجدنا الخفر يقفون على مشارفها متراصين بجوار بعضهم البعض مُشكلين سياجًا بشريًا حول القرية مما أثار دهشتنا من تأهبهم هذا وكأنهم في حالة استعداد قصوى لحرب قريبة، وقفنا على مقربة منهم بينما تقدم نحوهم أبي وعمي ليسألاهم عن مأوى لنا ولكن ما إن رأونا حتى أشهروا أسلحتهم تجاهنا وتوقف أبي وعمي عن التقدم وخاطبهم أبي متسائلًا: ما خطبكم؟ لمَ تُشهرون أسلحتكم في وجوهنا؟ نحن أناس عاديون وليس معنا أسلحة وما جئنا لحرب أو نهب، نحن

محـض أنـاس لا مـأوى لهـم ورأينـا قـريتكم فأتينـاكم نبتغـي عنـدكم بيتًـا وعمـلًا وطعامًـا، مـا جئنـا لنتسـول أو نسـرق، فقـط نطلـب عمـلًا ومـن عائـده نسـتأجر بيتًـا ونشـتري طعامًا.

ولكـن أحـدهم أجـاب أبـي بحـدة وكـان غلـيظ الخِلقـة والصـوت: لـدينا أوامـر مـن عمـدة القرية ألا ندخلكم إليها قط.

سـأله أبـي بدهشـة عارمـة: ولمـاذا؟! نحـن لا نعرف هذه القريـة ولـم نرهـا أو نسـمع عنهـا من قبل ولـم نكـن نعلـم أننـا سنصـل إليهـا ولا نعـرف عمـدتكم فلمـاذا يمنعنـا؟ وكيـف عـرف بقدومنا حتى جعلكم تتأهبون هكذا؟

أجـاب الرجـل الغلـيظ بلهجـة هجوميـة: لا علـم لـدي، لا تسـأل فهـذا لـيس مـن حقـك، هـي قريتنـا وهـو مـن يحكمهـا ولـه كـل الحـق فـي فعـل مـا يجـده فـي صـالحنا دون أن

نعترض أو نسأل، أنتم لستم منا ولا حق لكم عندنا، والآن هل ستذهبون من هنا أم نفعل كما أمرنا ونطردكم بالقوة؟

قال له أبي بتوسل: أرجوك اذهب إليه وأخبره عن حالنا هذا الذي ترى، ربما رَقَّ لنا وساعدنا.

تقدم منه الرجل ووجه ظهر بندقيته نحو أبي وضربه بها وهو يدفعه بعيدًا وهو يقول بتذمر: قلت لك اذهبوا من هنا أيها الرعاع، لن أخبره شيئًا فأنا أفعل ما أمرني به، هيا اغربوا عن وجوهنا وإلا قتلناكم.

اقتربنا من أبي وأبعدنا الرجل عنه وأخذناه وتركنا المكان ومضينا في طريقنا ونحن نشعر بشعور هو مزيج من عدم الفهم والدهشة والحزن مع شعور عارم بالمذلة والخذلان ولكن رأيت في عينيّ أبي شعورًا

بالانكسار تحطم على إثره قلبي فكل هذا بسببي وليتني ما رفضت عبد الجبار وتسببت في تشردنا مرة أخرى.

حل الظلام ونحن ما زلنا هائمين على وجوهنا في طريق لا نعرفه، نرنو إلى مصير مجهول، صامتين لا طاقة لنا ولا رغبة في الحديث فلو تحدث أحدنا لفاضت أدمعه رغمًا عنه دون أن يشعر. ورغم أن الليل قد حَلَك ولكننا استمرينا في السير ولم نتوقف رغم ما أصابنا من وهن وضعف بسبب الجوع والعطش والإعياء من كثرة المشي وقلة النوم والراحة، انتصف الليل ونحن على هذه الحالة وقد تعبت أقدامنا من كثرة السير ولكن خشينا أن نستريح ونحاول النوم على جانب الطريق فيحدث لنا مثلما حدث مع مأوى من قبل فقررنا ألا نتوقف مهما حدث وأمسكنا بأيدي بعضنا وأخذنا نقيم الليل ولكن بتلاوة ما نحفظ من القرآن والأذكار حتى مضى من الليل أكثره وبقي القليل

على الفجر فقررنا أن نستريح من السير بأن نصلي ركعات للقيام قبل الفجر على أن نكمل مسيرنا بعد الانتهاء من صلاة الفجر بإذن الله وهذا ما حدث بالفعل، وها نحن نمشي مع انبثاق ضوء النهار، وبعد سعي حثيث حتى وقت الضحى لاحت لنا من بعيد ملامح قرية كبيرة وبدأت تنشرح صدورنا وتمنينا أن نجد في هذه القرية قلبًا رحيمًا يرق لنا ويعطينا مأوى، لم نستطع أن نسرع السير فقد أُنهكت قوانا للغاية، بعد حوالي نصف ساعة وصلنا في غاية الإنهاك بالكاد تحملنا أقدامنا فوجدنا سورًا يحيط بالقرية ارتفاعه نحو الثلاثة أمتار، وللقرية بوابة حديدية ضخمة وجدناها مغلقة ووجدنا بجوارها جرسًا معدنيًا ضخمًا فضربه أخي وبعد قليل فُتحت البوابة وخرج منها حارس يرتدي زِي الخفر فسألنا: من أنتم؟ وماذا تريدون؟

أخبره أبي في عجالة عما نريد فقال: انتظروا هنا ريثما أخبر العمدة بأمركم.

ثم أغلق البوابة وذهب، غاب الحارس دقائق طويلة مرت علينا كأنها ساعات، وبعد قليل فُتحت البوابة وخرج منها رجل قصير نحيف غطى الشيب رأسه يحيط به عدد كبير من الحرس فنظر إلينا مُطولًا يتفحصنا من رؤوسنا إلى أخمص أقدامنا ثم قال مخاطبًا حرسه: أحضروا لهم طعًاما وماءً.

ثم وجه حديثه إلينا وتابع: تناولوا طعامكم ثم اذهبوا من هنا فليس لكم مكانًا بيننا.

نظرنا إلى بعضنا البعض بحزن وخيبة أمل فقال له أبي معتذرًا: نشكرك على كرم ضيافتك، ولكن لن نقبل طعامًا ولا ماءً فلسنا متسولين ولا نقبل الصدقات، لا أدري ما سر رفضك لنا دون أن نفعل لك

شيئًا ولكن لا بأس، قدر الله وما شاء فعل، سنذهب من هنا ولكن اسمح لنا أن نجلس هنا قليلًا لنستريح من مشاق الطريق ثم نذهب بعد ذلك بإذن الله.

صمت الرجل قليلًا وقد بدت على ملامحه علامات الدهشة الشديدة ثم قال: سمحت لكم.

ثم تركنا ودخل، ودخل خلفه حرسه ثم أغلقوا البوابة فجلسنا على الأرض وقد ارتفعت الشمس فوق رؤوسنا تكاد تحرقنا من شدة لهيبها وقد ازددنا ضعفًا وشعرنا أن أرواحنا تكاد تخرج من مكامنها فسأل عمي أبي متعجبًا: إنه لأمر عجاب! هذه القرية والقرية السابقة لم يتقبلونا دون أن يعرفونا ولم يخبرونا بأسباب ذلك، ماذا فعلنا لهم حتى يرفضونا بهذا الشكل؟! وهذا الرجل؛ إنه يبدو وقورًا حكيمًا فما مشكلته معنا؟

نظر أبي في الفراغ أمامه وقال بخفوت: يبدو أن تهديد عبد الجبار لم يكن مجرد تهديد بل أصبح واقعًا ملموسًا!

سأله عمي بعدم فهم: ماذا تعني؟

أجابه أبي بحزن: أنسيت؟ لقد هددنا أننا لن نجد مأوى خارج قريته.

سأله عمي مجددًا: نعم هددنا ولكن ما دخله بهاتين القريتين حتى يرفضنا أصحابهما لأجله؟ أيعقل أنهما ملكه أيضًا؟

قال أبي بوهن: لا أدري، دعونا ننم قليلًا قبل أن يطردونا مجددًا فلم أعد أقوى على فعل شيء وأتوق للنوم بشدة.

قال أبي ذلك ثم تمدد على الأرض وأغمض عينيه لينام فتمددنا نحن أيضًا وأغمضنا أعيننا ونمنا من فورنا من شدة الإرهاق.

*****

"يا شيخ الخفر." كان ذلك صوت عمدة القرية وهو ينادي شيخ الخفر الذي أتى مسرعًا وأجاب العمدة: نعم يا حضرة العمدة.

قال له العمدة آمرًا: خذ بعضًا من الحرس معك واذهبوا إلى مدخل القرية وافتحوا البوابة وانظروا هل ما زال هؤلاء الناس جالسين أم ذهبوا، إن وجدتهم ما زالوا هناك اطردهم فقد مرت خمس ساعات ويكفيهم هذا الوقت للراحة.

قال له شيخ الخفر بتعجب: لماذا لم تدعهم يدخلون؟ إنك طيلة عمرك لم تبخل على أحد ولم تطرد ضيفًا قط فلماذا تفعل ذلك مع هؤلاء؟ ماذا فعلوا لك وأنت لا تعرفهم؟

أجابه العمدة بحدة: افعل ما طلبته منك دون نقاش ولا تسألني عن أسباب.

قال شيخ الخفر وقد ازدادت حيرته من تصرفات العمدة الغريبة: أمرك سيدي.
ثم تركه وذهب لينفذ ما أمره به ولكنه عاد بعد وقت قصير تتلاحق أنفاسه بسبب هرولته، وما إن رآه العمدة حتى سأله بوجل: ما بك؟ لِمَ تلهث هكذا؟

قال شيخ الخفر من بين أنفاسه المتلاحقة: هؤلاء الناس!

سأله العمدة بلهفة: ما بهم؟ ماذا صنعوا؟

أجابه شيخ الخفر بحزن: لم يصنعوا شيئًا، لقد..... ماتوا!

الفصل التاسع
"ندم"

أحيانًا تُرغَم على فعل أشياء لا ترتضيها وضد مبادئك لخوفك من فوات رزقك ورزق من تعولهم وبعد أن تفعلها تندم أشد الندم ليس لأنك أخطأت وتسببت في خسارات فقط ولكن لأنك قبل كل شيء اعتمدت في رزقك على مخلوق فخشيته هو ونسيت أن الرزاق هو الله {وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ}.

بعد أن أخبر شيخ الخفر العمدة بأن عائلة معتمد قد ماتوا وقد رأى العمدة في عينيه نظرات اللوم والعتاب فشعر بغصة في حلقه ووجيف في قلبه وانتفض كَمَنْ لدغته هَامَّة ولم تستطيعا قدماه حمله فجلس على كرسي بجانبه ووضع كفه اليمنى على عينيه وأمسك عصاه بيده اليسرى وهو يضغط عليها بقوة كأنه يشعر بالندم على ما تسبب فيه، وله الحق

فـي ذلـك؛ فقتـل نفـس واحـدة كبيـرة عنـد الله فمـا بالـه وقـد تسـبب فـي مـوت سـبعة أنفـس اسـتجاروا بـه فلـم يُجـرهم، خاطـب نفسـه وهـو يلومهـا قـائلًا: مـاذا سـتقول لربـك يـوم يقـول لـك: "يـا عبـدي اسـتجرتك فلـم تُجرنـي." لقـد اسـتجارك عبـاده ولـم تُجـرهم فكيـف تجيـب ربـك؟! يـا ويلـي مـن عقـاب ربـي! وأي عقـاب أعظـم مـن أن تقـف أمامـه -جـل جلالـه- وتتلقـى اللـوم منـه سـبحانه؟! إننـي لـم أتحمـل نظـرات شـيخ الخفـر المحملـة بـاللوم والتـي جعلتنـي أسـتحقر نفسـي فكيـف لو لَامني رب العالمين؟

أفاقـه مـن شـروده صـوت شـيخ الخفـر وهـو يسـأله: حضـرة العمـدة، هـل تسـمعني؟ منـذ مدة وأنا أسألك؛ ماذا سنصنع؟

نـزع العمـدة يـده عـن وجهـه ونهـض مـن جِلسـته كأنمـا انتابتـه عزيمـة مفاجئـة وقـال لشـيخ الخفـر وهـو يسـبقه نحـو البـاب: هيـا بنـا نأخـذ الطبيـب ليتأكـد مـن مـوتهم فـإن

كانوا قد ماتوا فلنكرمهم هذه المرة ونهيؤهم لدفنهم داخل القرية ولنجعل لهم مقبرة خاصة داخل سور القرية بجوار البوابة ولنكتب عليها: (هنا يرقد من آثروا الموت في عفاف على أن يحيوا في كفاف، هنا يرقد من منعناهم رزقهم حتى لا يضيع رزقنا، فلا تفعلوا مثلنا يومًا وأعطوا لابن السبيل ما يعينه على الحياة حتى لا تلقوا الله بذنب لا تطيقون عاقبته.)، سأكرمهم في مماتهم لعل الله يغفر لي أَنْ جَفَيْتهم في حياتهم.

ثم خرج من الباب وتوجه ناحية حدود القرية لينظر في أمرهم وقد توجه شيخ الخفر ليحضر الطبيب ويلحقان به.

بعد قليل وصل الجميع حيث يرقد آل معتمد فنظر لهم العمدة بأسى وقلبه يعتصر خوفًا من عقاب الله وحُزنًا على حال هؤلاء الذين فقدوا حياتهم في سبيل البحث عن حق لهم منعهم عنه بشر مثلهم.

تقدم الطبيب نحوهم وبدأ يفحصهم، وبعد لحظات من فحصهم جميعهم نظر إلى العمدة وقال بلهفة: أحضروا سيارة بسرعة تنقلهم إلى المستشفى، إنهم ما يزالون أحياء ويجب أن نسعفهم على الفور وإلا فاحتمال نجاتهم هذه المرة قد ينعدم.

ثم أخرج هاتفه وهاتف إدارة المستشفى وأخبرهم بالوضع في عجالة وطلب منهم أن يجهزوا غرفة العناية الفائقة ريثما ينقلونهم إلى هناك بينما أمر العمدة الخفر أن يحضروا سيارة بسرعة، بعد لحظات حضرت سيارة نصف نقل فحملوهم برفق ووضعوهم عليها ثم ركب الطبيب بداخلها وتوجهت السيارة مسرعة نحو مستشفى القرية والتي تقع في منتصفها بالضبط وهي مستشفى مصغرة تشبه المستشفيات الكبرى من حيث المحتوى لكنها في حجم الوحدة الصحية وقد بناها العمدة في أرضه من ماله الخاص لتخدم أهل قريته

لأن أقرب مستشفى لهم تبعد عنهم مسافة ال100 كيلو متر مما يعني الموت للمريض إن كانت حالته خطرة قبل أن تصل الإسعاف لتأخذه إلى المستشفى أو حتى ينقلونه هم بسيارة نقل فالموت محقق في الحالتين؛ المستشفى بها جميع الأقسام في هيئة عيادات صغيرة وصيدلية وقسم للطوارئ وغرفة عمليات وغرفة عناية فائقة وعنابر للإقامة؛ عنبر للرجال وعنبر للنساء وعنبر للأطفال، بجوار المستشفى يوجد مبنى صغير لإقامة الأطباء والممرضين من خارج القرية ومطعم صغير لتحضير الطعام لهم وللمرضى، المستشفى مجانية بالكامل من كشف وعلاجات وعمليات وإقامة ويتولى العمدة وأغنياء القرية مسئولية التكفل بمصاريف المستشفى والمرضى ورواتب الأطباء، لا يوجد بالمستشفى سيارة إسعاف لأنها في منتصف القرية وقريبة من الجميع وإن كانت هناك حالة حرجة ينقلونها بأي سيارة عادية.

وصلت السيارة بعد نحو عشر دقائق إلى المستشفى فهرع الجميع للمساعدة وقد جهزوا المحفات لنقلهم بسرعة فحملوهم عليها وتوجهوا مباشرة نحو غرفة العناية الفائقة والتي قدر الله أنها كانت فارغة؛ فهي بها ثمانية أَسِرَّة فقط.

هرع أطباء العناية وقد أتى بقية الأطباء ليساعدوهم فتكفل كل طبيب بحالة ومعه مساعديه من الممرضين وبدأوا يقدمون لكل حالة ما تحتاجه من تحاليل ومحاليل وأجهزة أكسجين وجميع الأدوية.
بعد حوالي ساعة انتهى كل طبيب من تجهيز حالته وتركوهم بين يدي الله يأملون منه أن يشفيهم فلا شافي غيره، وهم مجرد أسباب.

خرج الأطباء وتركوا مع كل حالة ممرضًا ينتبه لها حتى تظهر نتائج التحاليل ويعرفون ما قد يحتاجون إليه فوجدوا العمدة وشيخ الخفر في انتظارهم متلهفين

لمعرفة أخبارهم فسألهم العمدة: كيف حالهم؟ هل هناك أمل أن يصبحوا بخير؟ وما الذي أصابهم؟

أجابه الطبيب الذي فحصهم أول مرة وقال: يبدو أنهم مشوا كثيرًا وتعرضوا لأشعة الشمس الحارقة ورطوبة الليل ولم يتناولوا أي طعام أو ماء لأيام فأصيبوا بالحمى مع الضعف والإرهاق وانخفاض نسبة الأنسولين في أجسادهم مما أدخلهم في غيبوبة، وأيضًا أصيبوا بنزلة شعبية حادة ويحتاجون إلى تنفس صناعي لذا أدخلناهم إلى العناية الفائقة، وهم الآن في حالة حرجة لا ندري إِلَامَ ستسير الأمور في الفترة القادمة لكن نطمع في رحمة الله.

شعر العمدة بالأسى وصمت للحظات قبل أن يقول للأطباء: ابذلوا قصارى جهدكم لإنقاذهم وسأمدكم بكل ما تحتاجونه من مال وغيره، وسأبتهل لله أن ينقذهم إن

كانت الحياة خيرًا لهم، ولكن أرجوكم لا تهملوهم ولا تستكينوا حتى يتعافوا.

تعجب الطبيب من لهفة العمدة وخوفه عليهم فهو يعلم أنه ذو قلب رؤوم لكنه تركهم في البداية في العراء فلماذا يهتم لشأنهم الآن؟! لم يكن الطبيب وحده من تعجب ولكن شيخ الخفر نفسه قد تملك منه العجب تملكًا ود منه لو يدخل رأس العمدة ليستكشف ما يدور فيها ولكنهما كليهما آثرا الصمت فهما يعلمان أن العمدة لن يروي ظمأهما ويجيبهما.

وعد الطبيب العمدة أنه سيفعل وتركهما وذهب، فقال شيخ الخفر للعمدة: فلنعد لعملنا؛ فهم الآن بين يدي الله وهو رحيم بهم وسيرعاهم بعين رحمته، أما وجودنا هنا فلا طائل من ورائه.

هز العمدة رأسه موافقًا ثم تحرك من مكانه بخطوات متثاقلة فتبعه شيخ الخفر حتى خرجا من المستشفى ثم توجها نحو بيت العمدة وباشرا أعمالهما حتى أتى الليل فذهب كل منهما إلى مضجعه ولكن لم يغمض للعمدة جفن فترك مضجعه وتوجه لمصلاه يناجي ربه أن ينقذهم ويرحمه قبلهم ويعطيه فرصة ليكفر عن ذنبه ويعوضهم خيرًا عما فعله بهم، وظل هكذا حتى الفجر فذهب للمسجد ليؤدي فرض ربه ثم توجه إلى المستشفى وصعد لأعلاها حيث الطابق الذي تقع به غرفة العناية المشددة واستأذن الطبيب أن يدخل إليهم فأذن له فدخل وتركه الطبيب والممرضون وحده. وقف في منتصف الغرفة ونظر إليهم بكل أسى وقال: سامحوني؛ لم يكن الأمر بيدي لكن حياة من أرعاهم كانت على المحك وتعلمون أن كل راع مسئول عن رعيته، لكنني زللت إذ ظننت أن الرزق بيد العبد ولكني أطمع في

عفو ربي ثم عفوكم وأرجو أن تغفروا لي ذلتي وإن كنت لا أستحق.

ثم تركهم وخرج وقلبه يتألم على سوء ظنه بربه وخذلانه لمن ساقهم الله له وجاءوا يطلبون عونه فأضاع رزقه بيده وكاد أن يتسبب بموت هؤلاء الأبرياء دون وجه حق، وعاد إلى بيته يجر أذيال الحسرة والألم، يعتلي وجهه الهم والكدر، ولكنه لم يكن يعلم ما ينتظره وينتظر عائلة معتمد بعد ذلك.

الفصل العاشر
"بعض من أمل"

"تضيق بنا الدنيا بما رحبت حتى إذا بلغ الضيق أقصاه نبع منه الفرج، هكذا لطف الله يدركنا في أحلك اللحظات في حين يترآى لنا أننا هلكنا ولكن الله لا يترك عباده سدى، إن من يرى أجساد عائلة معتمد ملقاة في العراء بجوار بعضها يظنها جثثًا تتهيأ للدفن وتنتظر تجهيز قبورها ليثجى بها داخلها لتبدأ رحلتها في عالم البرزخ، لكن لطف الله غالب وها هي قلوبهم ما زالت تنبض نبضًا ضعيفًا ولكنه خير إثبات على أنهم ما زالوا من أهل دنيانا وما زال لهم فيها رزقًا، أتعلم يا شيخ الخفر؟ عندما رأيتهم أول مرة وهم واقفون على أقدامهم ظننت بعقلي القاصر أن كلماتي التي قلتها ستجعلهم ينزعجون مني ويتركون البلدة ويبحثون عن غيرها وسيرزقهم الله بمن يؤويهم، لكنني ما ظننت قط أن كلماتي تلك ستكون سهامًا

تنطلق بضراوة إلى قلوبهم وتمزق آمالهم فتجعلهم يستسلمون للموت، ولكن ما حدث لهم ارتد لقلبي أنا فمزقه تمزيقًا وجعلني أُجابه كل المخاطر ولا أهتم إلا لإنقاذهم وتعويضهم، هل سيقبلون اعتذاري يا شيخ الخفر؟ بل هل سيسامحني الله على ما اقترفت؟"

أجبته: سيسامحونك بالتأكيد، وسيغفر الله لك طالما تُبت إليه، وبإذن الله سيشفع لك إنقاذك لهم، لكن تمنيت لو أعرف لماذا طردتهم في البداية؟

أجابني العمدة: "أنت تعرف عبد الجبار عمدة قرية حردون، وتعلم أننا نعتمد عليه اعتمادًا كليًّا ونشتري منه كل ما يلزمنا من محاصيل وفواكه وملابس وغيرها، وتعلم أننا لو لم نتعامل معه فإنه يُضَيق علينا ولا نستطيع أن نتعامل مع غيره وهكذا يفعل مع كل القرى المحيطة به قريبها وبعيدها، وقد هاتفنا؛ جميع عُمَد كل القرى التي

يسيطر على قُوتها، وأبلغنا أن هناك عائلة فقيرة مكونة من 7 أفراد طردهم من قريته وأن بينه وبينهم عداءً ضاريًا وهم الآن سيجوبون الأرض بحثًا عن مأوى لهم، ولو أن أي قرية قبلتهم وأدخلتهم ولو لثوانٍ فقط فسيعاديها أبد الدهر هو وكل من يخلفه وسيمنع عنهم ما يتحصلون عليه منه ولن يستطيعوا أن يتحصلوا عليه من غيره، نفذنا جميعًا أوامره ونسينا أن أمر رزقنا ليس بيده بل بيد الله وحده، طردهم الجميع وكذلك طردتهم أنا، أعنَّا الظالم عليهم فجاعوا وعطشوا وأهلكهم السير وما رقت لهم قلوبنا، لم أخذل أحدًا قط وخذلتهم، خشيت على من وَلَّاني الله عليهم وظننت أنني طالما أحرص على مصلحتهم فلن أُحاسب على خذلاني لهؤلاء، حسبت أن مصلحة الكثرة أولى من مصلحة القِلة، ليتني كنت قوي الإيمان لا أهاب أحدًا، ليت الله يغفر لي وليتهم يغفرون لي."

قلت له في محاولة فاشلة لتهدئته: هون عليك يا صديقي، عندما يفيقون أخبرهم بكل ما حدث واعتذر لهم وسيقبلون اعتذارك بإذن الله، كُف عن لوم نفسك حتى لا يتفاقم مرضك.

ولكنه قال وقد ازداد بكاؤه: "لم يتبقَ في عمري وقتًا لأنتظرهم به، إن عاشوا فأخبرهم عني وإن ماتوا فقف على قبورهم وأخبرهم لعلهم يغفرون لي، وأرجو ألا تخبر ولدي ولا أهل القرية بما بُحت لك به حتى لا يفعلوا مثلي ويخشوا ضياع الرزق ويسيئوا لهؤلاء المستضعفين، اتركهم لله يدبر مصيرهم كيفما شاء، وأرجو أن لا يعلم عبد الجبار بوجودهم هنا."

وعدته قائلًا: لا تقلق يا صديقي، لن أخبر أحدًا سوى تلك العائلة ليسامحوك، تماسك أرجوك، لا تستسلم هكذا.

لكنه قال بوهن: "ليت لي ألف نفس أحياها مكفرًا عن ذنبي، اغفر لي يا رب زلتي، اغفر لي يا رب، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، رحماك يا رب."

كانت تلك آخر كلمات قالها العمدة قبل أن تُقبض روحه، وها أنا ذا أنفذ وصيته وأخبركم بسبب طرده لكم وأرجوكم أن تغفروا له، لقد أهلكه الحزن والخوف من الله ومن عدم مسامحتكم له، مرت عليه ثلاثة أيام أثقل من الجبال قبل أن يقضي نحبه كما مرت عليّ تلك الأيام الأربع التي تلت وفاته وأنا أنتظر إفاقتكم لأخبركم باعتذاره، فهل تقبلون عذره؟ ولكن قبل أن تجيبوني فإني أخبركم بأنكم لن تُضاموا هنا أبدًا سواء سامحتموه أم لا، فالأمر متروك لقلوبكم ولن يجبركم أحد عليه.

بكينا جميعًا وأخبرناه أننا سامحناه وسامحنا كل صاحب قرية طُردنا منها وكل

من أعانوه تنفيذًا لأوامر كبيرهم، فهم مغلوبون على أمرهم مثلنا، سامحنا الجميع عدا عبد الجبار ولن نسامحه ما حيينا.

بعدما اطمأن شيخ الخفر أننا سامحنا العمدة السابق تركنا وهرول إلى قبره ليخبره بعفونا، علمنا من شيخ الخفر أن العمدة الجديد هو ابن العمدة السابق واسمه سعيد حسين، بعدما تركنا شيخ الخفر وذهب أتى الأطباء ليطمئنوا علينا، فحصونا وأخبرونا أننا نستطيع الآن أن نأكل ولا داعي للمحاليل والعناية المركزة، ثم أمروا بنقلنا إلى أحد العنابر ليتسع لنا لنقيم به لحين شفائنا بالكامل لنكون تحت رعاية الأطباء.

بعدما خرج الأطباء أتت الممرضات بطعام لنا، نظرنا إلى الطعام الذي يتذمر منه كل المرضى، نظرنا إليه بشوق واستنشقنا رائحته كأنما نستنشق عطورًا فواحة، تذوقنا الطعام الذي حُرمنا منه لأكثر من

أسبوع، كان مذاقه بالنسبة لنا شهيًّا طيبًا، آه كم تُقنا لملعقة طعام واحدة نتقاسمها فيما بيننا، آه كم تقنا لشربة ماء تروي ظمأنا، واليوم امتن الله علينا بطعام يعافه غيرنا ولو مروا بما مررنا به لعرفوا قدر هذا الطعام، أكلنا بشهية رغم الوهن الذي يتملكنا، شبعنا لأول مرة منذ أيام، انتهينا من طعامنا ولم نَكُفَّ عن حمد الله على كرمه.

بعد أن فرغنا من تناول طعامنا خرجت الممرضات وتركونا وحدنا فتشاورنا في أمرنا الذي كان والذي سيكون وقررنا أن ننفذ ما توصلنا إليه فور أن نخرج من المستشفى.

مر أسبوع آخر ونحن في المستشفى وقد اعتنى بنا الأطباء والممرضون على أكمل وجه ولم يقصروا معنا قط، خلال هذا الأسبوع لم يتوان شيخ الخفر عن زيارتنا كل يوم صباحًا ومساءً هو والعمدة الجديد،

لـيس هما فقط من كانا يزورانا بل كل أهل القرية أتوا إلينا زائرين يحملون معهم حبًا ومودة، لقد طَوق هؤلاء الناس أعناقنا بأفضال عظيمة لكننا نعرف كيف نرد الجميل.

بعدما انقضى الأسبوع خرجنا من المستشفى بعد أن شكرنا طاقمها على جميل صنيعهم، صحبنا شيخ الخفر إلى بيت العمدة لنقابله كما أمره، وصلنا إلى بيت العمدة وأدخلنا شيخ الخفر إلى غرفة الاستضافة فوجدنا العمدة في استقبالنا ورحب بنا بحفاوة ثم جلس وجلسنا حوله وطلب من الخفر أن يحضروا لنا الطعام، بعد قليل وصل الطعام فتناولناه بصحبة العمدة وشيخ الخفر الرجل الطيب "نُعَيم"، بعدما فرغنا من الطعام الشهي أخبرنا العمدة: لقد جهزت لكم دارًا بجوار داري وقد أصبحت ملكًا خالصًا لكم، ستقيمون بها بيننا في أمن وأمان لا يضركم أحد فقد أصبحتم من أهل القرية ولكم كل الحقوق

التي يتمتع بها من أرعاهم، وقد خصصت لكم قطعة أرض من أرضي تملكونها وتتعيشون من رِيعها وسأمدكم بكل ما تحتاجون إليه لزراعتها وأموال تتعيشون منها إلى حين تحصدون محصولكم الأول، كل هذا حقكم علينا وليس صدقة منا، أرجو أن تسعدوا بإقامتكم بيننا.

مثل تلك الكلمات لمن هم في وضعنا كفيلة بأن تجعلهم يبتهجون ويشعرون أنهم وأخيرًا وجدوا ما يبحثون عنه منذ شهور، ولكن ليس نحن من نبني سعادتنا على شقاء غيرنا، وها هو أبي يخبر العمدة بقرارنا الذي اتخذناه منذ أفقنا من غيبوبتنا وعلمنا بأن كل ما حدث لنا منذ تركنا قرية حردون هو تنفيذ لتهديد عبد الجبار لنا قبل أن نغادره. فقال أبي: ما فعلته يا حضرة العمدة، وما فعله أبوك من قبل -عليه رحمة الله-، وكذلك ما فعله شيخ الخفر والأطباء وكل أهل القرية معنا

لهو جميل عظيم لن نستطيع تسديده ما حيينا..

قاطعه العمدة قائلًا: يا أخي هذا ليس جميلًا، بل هو حقكم علينا، لا نريد سدادًا ولا شكرًا، كل ما نريده هو أن لا نكون قد قصرنا في حقكم.

شكره أبي وقال بلهجة حاسمة: لم تقصروا أبدًا وفعلتم أكثر مما نستحق، ولكن نعتذر منكم فلن نستطيع أن نبقى بينكم.

صُدم العمدة وتبادل النظرات المتعجبة هو وشيخ الخفر وسألانا في حيرة: لماذا؟!

أخبرهما أبي: أرجو أن تسمحا لنا بالاحتفاظ بالأسباب وعدم إبدائها، أحيانًا يكون الإفصاح عن الأسباب أشد إيلامًا من كتمانها لذا لن أفصح عنها فاعذراني،

والآن نترككما في رعاية الله، سنغادر القرية الآن بإذن الله فلا تنسونا من دعائكما، كنتم جميعكم خير صحبة وتمنينا أن نبقى بينكم لكن ليس لنا نصيب، أستودعكما الله.

تركناهما وخرجنا مسرعين حتى لا يُلحون علينا في البقاء، لكن شيخ الخفر لحقنا وطلب منا أن ننتظر العمدة، انتظرنا قليلًا حتى أتى العمدة وخلفه الخفر يحملون أكياسًا، أعطى العمدة لأبي كيسًا به مبلغًا من المال وأخبره أنه سيصحبنا إلى باب القرية ليودعنا وأنه أعد لنا زادًا ومياهًا يكفيانا إلى أن نصل إلى وجهتنا، شكره أبي ورفض أن يأخذ المال والطعام وأخبره أننا لا نقبل عونًا ولن نأكل أو نشرب إلا من عمل أيدينا، حزن العمدة وألح علينا هو وشيخ الخفر لنأخذهم فرفضنا فطلبوا أن نأخذ الطعام والماء حتى لا نمرض مجددًا وأخبرانا أنها ضيافة وليست صدقة فرفض أبي وأخبرهم أن الله لم يضيعنا من

قبل ولن يضيعنا أبدًا في حاضرنا أو مستقبلنا.

ودعناهما وودعنا أهل القرية وتركناهم وذهبنا إلى غير وجهة، تبعنا شيخ الخفر وناداناا بعد أن خرجنا من بوابة القرية وسألنا بعد أن تأكد من أننا بعيدون عن الناس: لماذا تتركوننا؟ ألم يخبركم العمدة أنكم في أمان بيننا؟

أجابه أبي: لقد أكرمتمونا غاية الإكرام، وليس ردنا لجميلكم يكون بأن نبقى بينكم وأنت تعلم أن عبد الجبار لو علم بذلك فسيفعل بكم ما فعله بنا وأكثر، لا يرضينا أن تنالوا ما نِلناه، نحن قلة وأنتم كثرة، مصلحتكم أهم، لن يضيرنا التشرد فقد اعتدناه لكننا لن نتحمل أن نكون سببًا في إيذائكم فلو حدث ذلك لَمِتْنَا هذه المرة بحق، وهذا أقل ما نستطيع أن نقدمه لكم فأرجو ألا تنزعجوا منا، ولي طلب أرجو أن تنفذه لي.

قال نُعيم بتأثر بالغ: اطلب ما شئت.

قال أبي: أرجو أن تبلغ العمدة وأهل القرية بما حذركم به عبد الجبار حتى ينتبهوا ولا يخبره أحد أننا أقمنا بينكم أسبوعين لِكيلا يصيبكم بضر، ولكن لا تخبر أحدًا بسبب رحيلنا.

وعدنا شيخ الخفر أن ينفذ ما طلبه أبي ثم سلم علينا وودعنا وتركناه ورحلنا لا نعلم إلى أين نسير ولا إلى متى سنظل على هذه الحال ولكن الله يعلم ولن يضيعنا.

الفصل الحادي عشر
"دائرة مغلقة"

دائرة مغلقة تدور بلا هوادة؛ هذا هو حالنا منذ فقدنا بيتنا، نسير آلاف الأميال، نمر على قرى كثيرة، وها نحن قد عدنا لما كنا عليه، نسير في الأرض بلا توقف ولا نجد ما نبحث عنه، أصبحنا جزءًا من الأرض ندور معها حيث دارت ونتوقف حيثما وقفت، آه من ظلم العباد للعباد، آه من الذل والانكسار، آه ثم آه من جبروت عبد الجبار، أأجرمت إذ مارست حقي الطبيعي في الرفض؟! إننا أحرار ولسنا عبيدًا ليتحكم في مصيرنا بشر مثلنا لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، تجبر كما يحلو لك فلن ينقذك من الله أحد.

- ملاذ.. ملاذ...

- نعم يا أمي، ما الأمر؟

- فيمَ أنتِ شاردة يا ابنتي؟

- لا شيء يا أمي، فقط لم أنتبه لكم.

- أأنت بخير يا ابنتي؟

حاولت أن أتماسك حتى لا تخونني دموعي وقلت بثبات مصطنع: نعم بخير يا أمي، لا تقلقي.

أجابتني أمي بصوت يتصنع تصديق ما قلته: حفظك الله يا ابنتي، كنت أناديك لنتوقف لنصلي العصر، هيا لنتيمم.

توقفنا عن المسير وتيممنا وصلينا العصر وقررنا أن نتلو أذكار المساء ونحن نكمل مشينا لعلنا نستطيع أن نجد مكانًا يؤوينا قبل حلول الظلام. مشينا طويلًا حتى تفطرت قلوبنا قبل أقدامنا ولكننا نطمع في رحمة الله وبداخلنا ندعوه أن ييسر لنا

أمرنا. قاربت الشمس على المغيب ولم تَلُحْ لنا في الأفق بعد علامات قرية أو جبل نحتمي به، استمرينا في السعي ومن الله فقط تأتي النتائج، بعد أن دخل وقت المغرب توقفنا نصليه ثم تشابكنا الأيدي وسرنا ونحن نذكر الله ونرجوه ألا يحدث لنا ما حدث لمأوى من قبل. بعد مُضي وقت قليل لاحت لنا في الأفق سيارة متوقفة على مد البصر، أسرعنا الخطى نحوها لعل صاحبها يساعدنا وينقلنا إلى أي مكان عامر بالناس، بعد قليل وصلنا حيث السيارة فوجدناها سيارة تويوتا قديمة بعض الشيء ويبدو أن وجهتها كانت إلى الطريق الذي جئنا منه، شعرنا بخيبة الأمل فوجهتها ليست وجهتنا لكننا سمعنا أنينًا يأتي من داخلها فخشينا أن يكون صاحبها مصابًا، أسرع رجالنا إلى بابيّ السيارة ففتحوهما فوجدوا السائق منحني إلى الأسفل ويبكي فسأله أبي بقلق: هل أنت بخير يا ولدي؟

فزع الرجل ورفع رأسه ونظر نحونا وقال بتلعثم يظهر مدى رعبه: م.. من أن..تم؟
أجابه أبي بلهجة حنونة ليطمئنه: لا تقلق يا بني، نحن بشر مثلك، لا تخش شيئًا.

سأل الرجل برهبة ممزوجة بالدهشة: لو كنتم بشرًا حقًّا فما الذي أتى بكم إلى هذه الطريق الخالية من كل مظاهر الحياة.

ابتسم أبي بحنو وقال: يبدو أنك تظننا من الجان، لا تخف، أقسم لك أننا بشر ولكن حكايتنا طويلة، أخبرنا أنت لماذا توقفت هنا؟ هل نفد وقود سيارتك؟

أجابه الرجل بحزن ودموعه تتساقط رغمًا عنه: لا، رحلتي طويلة ودومًا أتهيأ لها وآخذ معي ما يكفيني من الوقود لرحلة الذهاب والعودة، لكن ما لم أضعه في حسباني أن السيارة قد تتعطل بي في منتصف الطريق بعيدًا عن العمران وأنا لا

أعرف أي شيء عن أعطال السيارات ولا كيفية صيانتها، وما زال الطريق طويلًا أمامي وليس معي طعام وكاد الماء ينفد، وهذه الطريق لا يسير عليها أحد إلا نادرًا، فأخشى أن يطول بي الحال ولا أجد من يساعدني فأهلك هنا.

لم يتمالك الرجل نفسه وترك لبكائه العنان.

ربت أبي على كتف الرجل وقال له: سبحان الله! معك سيارة ولم تنفعك فصرت مثلنا ننتظر جميعًا مصيرًا مجهولًا، لكن الله أرحم بنا من أنفسنا، فانظر كيف بعثنا لك لنساعدك.

صاح الرجل فرحًا: أحقًّا تستطيعون مساعدتي؟! كيف؟

أجابه عمي مأمون: أنت محظوظ يا رجل، لقد كانت لدينا سيارة قديمة وكانت تتعطل

كثيـرًا فتعلمـت كيـف أصـلحها لأنـه لـم يكـن بمقـدورنا الـذهاب إلـى الميكـانيكي، اخـرج واسـترِح قلـيلًا ريثمـا أفحصـها وأصـلحها بإذن الله.

خـرج الرجـل مـن السـيارة مسـرعًا يتقـافز فرحًـا فـأخبره أبـي أن يشـكر الله فتـيمم وصـلى ركعتـين شـكرًا لله بينمـا بـدأ عمـي بفحـص السـيارة وموئـل ومـآب يسـاعدانه، جلسـنا نحـن النسـوة ومعنـا أبـي بـالقرب مـنهم ننتظـر أن ينتهـوا لنكمـل سـيرنا، أنهـى الرجـل صـلاته وجلـس بجـوار أبـي وسـأله عـن حالنـا فقـص عليـه أبـي فـي عجالـة ملخـص مـا حـدث لنـا. حـزن الرجـل لحالنـا وقـال فـي أسـى: أعـرف هـذا الجبـار؛ فهـو يـتحكم فـي أقـوات قـرى كثيـرة فـي هـذه المنطقـة ومـنهم قريتـي، أنـا نفسـي أشـتري منـه بعـض البضـائع وأسـافر إلـى المـدن البعيـدة لأبيعهـا وأعـود إلـى قريتـي فـي سـفر طويـل يرهقنـي ولكـن لأجـل أطفـالي سـأتحمل، المحـزن فـي الأمـر أنـه مـا زالـت

هنـــاك قـــرى كثيـــرة ســـتقابلكم كلهـــا تحـــت سـلطانه ولـن يسـمح لكـم أي مـنهم بـالاقتراب من قراهم خوفًا من بطشه.

قاطعـــه أبـــي بحنـــق: يـــا لهـــؤلاء! أيخشـــون بطشه ولا يخشون بطش الله؟

أجابـــه الرجـــل بحـــزن: الفقـــر يـــا أخـــي! هـــم فقـــراء ضـــعفاء لا طاقـــة لهـــم بمجابهـــة جبروت عبدالجبار.

ســـأله أبـــي: ألا توجـــد أي اســـتراحة فـــي الطريق طالما أن كل القرى تخشاه؟

أجابـــه الرجـــل والـــذي أخبرنـــا أن اســـمه علـــوان: كـــلا، هـــذه الطريـــق لا يســـير فيهـــا بشـــر كثيـــر، فلمـــاذا قـــد يغـــامر أي شـــخص باستراحة لن يجني من ورائها شيئًا؟

تعجب أبي وقال: ما هذه الطريق العجيبة التي وقعنا فيها؟! لم نجد أيضًا أي محطة وقود، من أين تجلبون الوقود إذًا؟
أجابه علوان: في كل قرية تجد خزان وقود عبارة عن سيارة يملأها صاحبها من أي مدينة ويبيع منها لأهل قريته، هذه القرى نائية لا تصلها أي خدمات والحياة فيها شاقة، ليت لنا طاقة مادية مناسبة لنحيا في المدن لكنها لا تناسبنا.

قاطعهما صوت عمي يخبرنا بأنه انتهى من تصليح السيارة وهي الآن جاهزة للانطلاق، فرح الرجل بشدة وشكرنا وقال: لن أنسى صنيعكم ما حييت، هيا اصعدوا إلى السيارة لأقم بتوصيلكم حيث تريدون.

لكن أبي قال: شكرًا لك يا بني، لقد مررت برحلة شاقة ويكفيك ما حدث لك، ما زالت الطريق أمامك طويلة حتى تصل إلى بيتك، لا ينبغي أن تتأخر أكثر من ذلك حتى لا تقلق زوجتك وأطفالك، أكمل طريقك أنت

على بركة الله ولا تقلق علينا فلن يضيعنا الله.

حزن الرجل وحاول أن يلح على أبي لكن أبي رفض رفضًا قاطعًا، فأدخل الرجل يده في جيبه وأخرج ماله وقسمه نصفين وقال لأبي: خذ هذه الأموال إذًا، ليست صدقة أو مساعدة لكنها من بعض فضلكم علي.

ابتسم أبي وقال: يا أخي، الفضل كله لله، لم نفعل شيئًا نستحق عليه أجرًا.

تعجب الرجل وقال: لقد أنقذتم حياتي، هذا وحده أمر يستحق شكركم مدى الحياة.

أجابه أبي بلهجة حاسمة: اشكر الله وحده، الله فقط هو من أنقذك، لقد يسرنا لك من غير حول منك ولا قوة، ونحن لا نأخذ نظير مساعدتنا لغيرنا، وماذا عسانا أن نفعل بالمال في هذه الصحراء القاحلة؟ هيا

يا أخي لنصلي العشاء جماعة ثم سِرْ على بركة الله في طريقك ولا تغفل عن ذكر الله وشكره.
بعدما انتهينا من صلاة العشاء تركنا العم علوان وذهب في طريقه بعد أن ودعنا بحرارة وأكملنا نحن طريقنا نطمع في رحمة الله. ظلت أقدامنا تسير حتى الصباح فتوقفنا لنصلي الضحى بجوار صخرة كبيرة فقررنا أن نستظل بظلها ونغفو قليلًا لنستريح من وعثاء الطريق حتى يمضي الهجير ونكمل مشينا. نمنا بعمق لا ندري كم مضى من الوقت فقد تاقت أجسادنا للراحة، أيقظني من نومي صوت يضحك ويقول بلهجة ساخرة: ألم يكن زواجك بي أفضل من تشردكم هذا يا ملاذ؟

فزعت ونهضت من نومتي ونظرت حولي فلم أجد أبي وأمي وأخوتي، أنا وحدي تمامًا فأين ذهبوا وتركوني؟ أين الصخرة؟ أين الصحراء؟

نظرت حولي فلم أجد سوى جدران غرفة واسعة فارغة من كل شيء ورغم ذلك أشعر أنها تخنقني، ولمَ لا وهو هنا؟ عبد الجبار!

الفصل الثاني عشر
"جنة الصحراء"

أَبعد كل هذا أعود إلى عبد الجبار! كيف حدث هذا ومتى؟! وكأنه سمع أفكاري فقال بابتسامة ساخرة: لا تفكري كثيرًا يا ملاذ، لقد اختطفتك من بين أحضان أهلك وأمام أعينهم بعد أن قيدتهم في الصخرة وتركتهم ليموتوا جوعًا أو تأكلهم السباع، اختطفتك وسأتزوجك رغمًا عنك ولن تستطيعي الفكاك من بين براثني.

صرخت به وأنا أبكي: أيها الجبار العتيّ، لماذا تفعل كل هذا؟ ماذا فعلنا لك لتظلمنا كل هذا الظلم؟ أيها الوغد أعدني إلى أهلي، هيا.

تحولت ابتسامته إلى ضحكات مقيتة عالية وقال: اصرخي كما يحلو لكِ، اصرخي اليوم وإلى نهاية العمر دون توقف، لن

يحـرك صـراخك فـيّ سـاكنًا، أتظنـين أنـه بصـراخك هـذا سـينقذك مـن بـين يـدي أي أحـد؟ أنـت واهمـة يـا مـلاذ، مـن تظنينـه يقـدر على خلاصك مني؟

ثـم علـت ضـحكاته أكثـر فقلـت لـه بقـوة: الله سينقذني منك، الله القوي أقوى منك.

تغيـر وجهـه واحـتقن وأصـبحت ملامحـه مرعبـة فصـرخت بـأعلى صـوتي: أنقـذني منه يا رب.

فجـأة سـمعت أصـواتًا كثيـرة حـولي تنـادي باسـمي ففتحـت عينـي فوجـدتني بـين أهلـي حيـث كنـا ننـام أسـفل الصـخرة! مـاذا؟! أكـان هـذا حلمًـا؟! بـل كابوسًـا! الحمـد لله الـذي أنقذني منه.

بعـد أن اسـتعدت رباطـة جأشـي وطمأنـت أهلـي وصـلينا الظهـر عـدنا للمشـي مـرة

أخرى ولكن هذه المرة لم نمشِ طويلًا، فما لبثنا أن وجدنا سيارة قادمة من بعيد في اتجاهنا لكنها انحرفت عن يمينها قبل أن تصل إلينا فقررنا أن نمضي خلفها لعلنا نجد قرية أو طريقًا أخرى أفضل من هذه الطريق التي نسلكها.

بعد مشي طويل في الصحراء لاحت لنا من بعيد ملامح طريق ممهدة فهرولنا إليها ومشينا فيها ما يقرب من الكيلو متر حتى فوجئنا بنفق مغطى بين جبلين ومظلم للغاية فتشابكنا الأيدي ودخلناه بعد أن ترددنا قليلًا خوفًا من أن تكون الطريق ليست آمنة. بعد ما يقرب من الساعة سيرًا على الأقدام عبرنا النفق بسلام ففوجئنا أن وجدنا أمامنا بوابة قرية كبيرة مفتوحة على مصراعيها، لم نصدق ما تراه أعيننا هل هذا حلم أم واقع؟!
وقفنا مشدوهين للحظات نشاهد هذه القرية العجيبة ونتساءل بيننا وبين أنفسنا أسئلة كثيرة نود لو نجد لها إجابة، كانت

الشمس قد غربت وحَلك الليل لكن الأضواء التي تملأ سور القرية من الخارج ومدخلها تُحيل ليلها نهارًا، قررنا أن ندخلها على بركة الله ربما تكون بعيدة عن سلطان عبد الجبار.

تحركنا ببطء نحو بوابة القرية والتي ما رأيت مثيلها قط؛ السور الخارجي مرتفع كأنه يعانق السماء، أبيض أملس يشعرك أنه يلمع في الظلام، تحيط به في منتصف ارتفاعه مصابيح كهربائية مزخرفة كأنها صنعت من الذهب، أما البوابة فهي عالية وتبدو ثقيلة وهي أيضًا بيضاء بنقوش ذهبية، ما إن اقتربنا منها حتى فوجئنا أنها مرصعة بالألماس، عرض البوابة يقارب الأربعة أمتار ولا يوجد عليها حراس. اجتزنا البوابة وسرنا في طريق طويلة عريضة ممهدة بشكل بديع، يحيط بجانبيها أعمدة مصابيح ذهبية ارتفاعها يناهز قامة الرجل الرشيد ومن ورائها ورود بديعة يشعرك عبقها بالانتعاش. ما هذا المكان الذي يشبه قصور الملوك؟! لم

يقابلنا أحد في الطريق مطلقًا، أُيعقل أنه لا يسكنها أحد أم أن سكانها من الجان!
سرنا مسافة تقارب الخمسمئة متر وبعدها وجدنا بيوتًا على الجانبين، كل بيت مكون من طابقين، البيوت كلها متطابقة في الحجم والتصميم واللون الأبيض الناصع والمصابيح الذهبية التي تملأ واجهات تلك البيوت، وأبوابها الذهبية اللامعة المرصعة بالألماس. كل أبواب البيوت مغلقة والمصابيح الخارجية مضاءة لكن لا مصابيح داخلية، النوافذ تبدو على ضوء المصابيح الخارجية أنها مصنوعة من الزجاج ولا يوجد شرفات. لكن هل نام أهل القرية مبكرًا؟ لو لم نرَ السيارة بأعيننا ولا توجد طريق أخرى تسلكها غير التي سرنا فيها لأجزمت أنها قرية مسحورة.

بعد سير طويل داخل القرية جُلنا فيه بأبصارنا في كل شبر فيها لمحنا من بعيد أضواءً تتلألأ وأصوات موسيقى، أسرعنا الخطى نحو مصدر الضوء والصوت لعلنا

نجد أهل القرية هناك فيساعدوننا، بعد قليل وصلنا إلى ساحة واسعة اجتمع فيها كل أهل القرية من رجال ونساء وشيوخ وأطفال ومن حولهم المعازف وألوان الطعام والمشروبات المحرمة، النساء لباسهن فاضح ولا تعرف من زوجة من فالاختلاط بلغ أقصاه وكل الموبقات تُرتكب على مرأى ومسمع من الجميع، صُدمنا مما نراه ولكن لم ينتبه لوجودنا أحد من شدة التيه الذي أصابهم، وقفنا مشدوهين لا نحرك ساكنًا فوجدنا أبي وعمي يصرخون فينا لنتحرك، لم نعرف هل نعود أدراجنا من حيث أتينا أم نكمل الطريق التي أمامنا، بعد مشاورة قصيرة استقر بنا الرأي أن نكمل الطريق لعلها توصلنا إلى قرية أخرى، بعد أن سرنا مسافة ابتعدنا فيها عن صخب الحفل ولم نعد نسمع صوته أو نرى أثره وصلنا إلى منطقة مظلمة فسرنا فيها مسافة صغيرة حتى أوقفنا صوت استغفار يصدح عاليًا يشق

ظلام الليل، صوت رجل يكرر ببكاء مرير: "ربنا لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا."

تتبعنا الصوت فوجدناه يخرج من بيت صغير يظهر على ضوء مصباح خافت ينبعث من داخله، وقفنا نستمع لمناجاة الرجل ونتعجب من حاله وحال أهل القرية، تقدم أبي وطرق باب البيت الخشبي وبعد قليل فتحت لنا امرأة عجوز نحيفة لكنها ليست واهنة، تحمل في يدها مصباحًا زيتيًّا يضيء بالنار! شعرت المرأة بالفزع عندما رأتنا وأغلقت الباب في وجهنا، دُهشنا من صنيعها وكدنا نتحرك ونكمل سيرنا ولكن الباب فُتح مرة أخرى وهذه المرة خرج إلينا رجل يبدو في الستين من عمره، وقورًا ملأ الشيب لحيته ورأسه، رحب بنا وأدخلنا داخل البيت، أغلق الرجل الباب خلفنا وأرشدنا إلى حيث نجلس؛ البيت بسيط للغاية، صغير هو يتكون من غرفة وحمام وصالة مربعة بحجم غرفة صغيرة وفي أحد أركانها

توجد بعض أدوات الطبخ البسيطة، جلسنا على الأرض المفروشة ببساط قديم بسيط، يبدو أن البيت لا توجد به كهرباء فالحائط معلق عليه مصباح زيتي كالذي كانت تحمله المرأة، جلس الرجل وزوجته أمامنا وهما يتبادلان نظرات متوترة قطعها سؤال الرجل لنا: من أنتم؟ ومن أين أتيتم؟ وكيف وصلتم إلى هنا للقرية التي لم يصل إليها أي غريب قبلكم؟

قص أبي عليهما قصتنا وكل ما مررنا به باختصار، كانت المرأة تبكي وهي تسمع قصتنا مما أثار شجوننا نحن أيضًا ولكننا تماسكنا. بعدما أنهى أبي قص قصتنا سأل الرجل: اعذرني سيدي، هل لك أن تخبرنا أين نحن، وما هذه القرية العجيبة؟

أجابه الرجل: هذه هي القرية الظالم أهلها.

تعجبنا وتبادلنا نظرات الدهشة فسأله أبي باستهجان: قرية ماذا! أهكذا اسمها؟!

ابتسم الرجل بأسى وقال: كلا، هكذا أسميتها أنا ولكن اسمها الحقيقي هو قرية النَعْمَاء، قرية مليئة بنعم لا تحصى، يتهيأ لمن يراها أول مرة أنها قطعة من الجنة لكنها الجحيم بذاته، الساحة التي رأيتموها تفصل بين بيوت القرية وبين أراضيها، أراضٍ لو رأيتموها لظننتم أنها من الجنة بحق، أراض شاسعة لا يُرى آخرها مليئة بالأشجار اليانعة الممتلئة بالثمار الشهية، وأراض أخرى بها شتى أنواع المحاصيل والخُضر والأعشاب، ما تنتجه الأراضي تكفي حاجتهم وتفيض وما يزيد عن حاجتهم يبيعونه في المدن البعيدة، لا أحد يعرف موقعنا ولم يزرنا غرباء قط سواكم، هنا لا يرحبون بالغرباء، هم أثرياء ثراءً فاحشًا ويسرفون في ملذاتهم ولا يبخلون عليها بالأموال ولقد رأيتم بذخهم في بناء بيوتهم، ولكنهم يخشون الغرباء لكي لا ينهاهم أحد عما يفعلوه، لولا أنني الطبيب الوحيد هنا ومن أقوم بتزويجهم لطردوني أو قتلوني منذ زمن.

كل كلمة سمعناها كانت تنزل على قلوبنا وأسماعنا كالصاعقة فقال أبي: كأنني أسمع قصة قوم سبأ في قرية مأرب في اليمن، ما كل هذا الفحش؟! ولماذا تعيش بينهم رغم ما يظهر عليك من صلاح؟ لِمَ لَمْ تهاجر؟ ولماذا حالك يختلف عن حالهم؟

أجابه الرجل: كانت هذه القرية مغلقة لا صلة لها بما هو خارج حدودها، ومنذ نشأتها منذ قرون وهي منعمة بخيرات الله وكان أهلها يشكرون النعمة حتى عشرون عامًا خلت عندما قرر بعضهم أن يتصلوا بالعالم الخارجي وبدأوا يبيعون بضاعتهم في المدن وانبهروا بحياة الترف والمعاصي فنقلوها إلى هنا وانتشرت كالنار في الهشيم حتى أصبحوا جميعهم هكذا إلا قليلًا منا ثبَّتنا الله وأخذنا ننهاهم عما يفعلوه فقتلوا من قتلوا وفر من فر، فهُجر المسجد وأصبح خربًا، عمروا بيوتهم وطلوها بالذهب والفضة ورصعوها بالألماس والأحجار الكريمة وفرشوها

بالـــديباج وأصـــبح لباســـهم الســـندس والحريـــر، تركـــت بيتـــي الـــذي كـــان وســـط بيـــوتهم وبنيـــت هـــذا البيـــت الصـــغير هنـــا فـــي أرضـــي الصـــغيرة وانعزلـــت عـــنهم أنـــا وزوجتـــي كريمـــة، أزرع فـــي أرضـــي شـــعيرًا وبعـــض الخضـــر لنتقـــوت مـــنهم أنـــا وزوجتـــي وبـــاقي الأرض أزرعهـــا بالأعشـــاب لمعالجـــة مرضـــاهم، كنـــت إمـــام مســـجدنا ولكـــن لـــم يعـــد يصـــلي فيـــه غيـــري أنـــا وزوجتـــي، كنـــت أؤذن وأقـــيم الصـــلاة فظلـــوا يضـــربوني حتـــى منعـــوني عنـــه وأغلقـــوه بـــالقوة، وهـــا أنـــا أســـتعين بالصـــبر والصـــلاة وأمـــر علـــيهم كـــل يـــوم فـــي الصـــباح بعـــد أن يفيقـــوا مـــن غفـــوتهم وســـكرهم لأنصـــحهم ولا مجيـــب، نقضـــي أنـــا وزوجتـــي ليلنـــا نســـتغفر ربنـــا عســـى أن لا يؤاخـــذنا بـــذنوبهم، زوجتـــي ظلـــت تلـــح علـــي لأعـــوام لأتـــرك القريـــة فرفضـــت عســـى أن يصلح الله بي حالهم وينجيهم مما هم فيه.

سأله أبي: ما اسمك يا سيدي؟

ابتسم الرجل وقال: نسيت أن أخبرك فاعذرني، اسمي تقي الدين.

قال له أبي: لا عجب من اسمك فمن يصنع صنيعك هذا يجب أن يكون تقيًّا بالفعل، نشكرك يا سيدي على استضافتنا هذا الوقت القصير، نستودعك الله، يجب أن نذهب من هنا قبل أن يفيقوا ويطردونا أو يقتلونا.

لكن العم تقي قال بلهجة حاسمة: لن تذهبوا من هنا أبدًا، لقد أجاب الله دعائي ولن أترككم ترحلون.

سأله أبي باندهاش: ماذا تقصد يا سيدي؟ ألم تقل أنهم لا يرحبون بالغرباء؟ فكيف تطلب منا أن نبقى هنا؟

أجابه العم تقي بما لم نكن نتوقعه: لأنني أنتظركم منذ عام.

الفصل الثالث عشر
"دعوة"

ينتظرنا منذ عام!! كيف هذا ونحن لم نره أو نسمع عن قريته العجيبة هذه من قبل؟ أيعقل أن هذه القرية من صنع الجان وهذا الرجل أحدهم؟ يا لكثرة التساؤلات التي تناطح رأسي!

عندما سمعنا إجابة الرجل اعترانا صمت مطبق ولكن ما ارتسم على وجوهنا من مشاعر وتساؤلات كانوا أشد تعبيرًا عما نشعر به مما لو كانت نطقته ألسنتنا.

وكأن الرجل قد قرأ أفكارنا فابتسم وقال بهدوء يعتليه الوقار: نعم أنتظركم منذ عام، لا تتعجبوا، لست ساحرًا ولا مُنجمًا ولا من الجان، قصتي التي أخبرتكم بها منذ قليل حقيقية لا افتراء فيها ولم أكملها بعد، عندما انتشر الفساد بيننا حينها أنا

والقليلون الذين ثبتوا على الإيمان -بفضل الله وحده، ولولا فضله هذا لأصبحنا مثلهم- بدأنا ندعوهم إلى الله من جديد، الله الذي في خلال فترة قصيرة جدًا أصبحوا كأنهم لم يعرفوه أو يعبدوه قط، كأنهم كانوا ينتظرون شارة البدء ليطلقوا ما بداخلهم من سوء، حينها كنت أنا وصحبي منبوذين منهم لكننا لم نتوقف عن نصحهم راجين أن يهديهم الله وخشية إن حل بهم عذاب من ربنا أن يصيبنا مثله إن سكتنا عن نصحهم، أردنا النجاة لنا ولهم لكنهم لم يرتدعوا بل زادوا طغيانًا وظلمًا وفجورًا، ارتكبوا كل المحرمات ولم يتركوا كبيرة إلا عكفوا عليها حتى وصل بهم الأمر لقتل بعض أصحابي، أما البعض الآخر فقالوا: "سنترك هذه القرية الظالم أهلها، لن نبقى هنا حتى يقتلونا، أمرنا الله بهجر أرض السوء إلى أرض نعبده فيها آمنين مطمئنين على ديننا وأنفسنا، هؤلاء بلغوا من الظلم لأنفسهم ولنا مبلغًا عظيمًا وربما حل بهم العذاب، أردنا لهم الخير

وما زادهم هذا إلا تنكيلًا بنا." كانت هذه آخر كلمات سمعتها منهم في آخر اجتماع لنا في صلاة العشاء بالمسجد، وفي صلاة الفجر كنت أصلي وحدي أي منذ عشر سنوات وحتى الآن. رفضت أن أترك هؤلاء طمعًا أن يخرج من أصلابهم من يوحد الله، لم يتركوني أعبد الله بسلام وأغلقوا المسجد وقاطعوني إلا في حال اضطروا إلي لأعالجهم أو أزوجهم وهذا يحدث نادرًا فقد زادت قوتهم ولم تعد تزورهم الأمراض مما زادهم تكبرًا وظنوا أن ما هم فيه خير مما كانوا عليه ولا يعلمون أن هذا استدراج من ربهم وهذا ما أفجعني، وشعرت أن الله سيعذبهم بغتة فصرت أبتهل إليه ليلًا ونهارًا أن يتوب عليهم ويردهم إليه مردًا جميلًا، لكنني في السنوات الأخيرة ضعفت صحتي وشعرت أن نهايتي قد اقتربت فقد شارفت على السبعين من عمري، حينها خشيت أن يهلكم الله بعد موتي فربما أنقذهم من العذاب حتى الآن استغفاري لهم، بدأت

أدعو الله أن ييسر لي من يخلفني فيهم فجعلت أكرر دعاء سيدنا زكريا -عليه السلام-: {رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ} في كل أوقاتي طامعًا أن يرسل الله لي من يشد به عضدي، سنوات طوال وأنا أدعو بهذا الدعاء ولم أيأس، كنت على ثقة أنه سيجاب حتى أتتني البشرى في منامي منذ عام ورأيتكم بنفس هيأتكم في مثل هذه الليلة تدقون بابي كما فعلتم الليلة وسألتكم عمن تكونون فأجبتموني: "نحن إجابة دعوتك." وها أنا ذا أنتظر مجيئكم من وقتها بفارغ الصبر، كل ليلة كنت أقول لنفسي لعلها هذه هي الليلة التي سيأتون فيها ولكن مرت الليلة تلو الليلة ولم تأتوا حتى كدت أظن أنها لم تكن رؤيا حقة بل حلمًا من الشيطان، وكاد اليأس أن يدخل قلبي فقررت أن أتجاهله وأحاول أن أنسى أمر الرؤيا وأستمر في الدعاء وحسب، ولكن منذ أسبوع أصابتني وعكة شديدة خشيت منها أن تكون هي القاضية فزدت من دعائي وبكائي وإلحاحي على

الله أن يأتني بكم سريعًا واليوم جنيت ثمرة يقيني بربي واستجاب دعائي وها أنتم الآن هنا بين يدي وإني لأرجو أن تتحملوا ثقل الأمانة.

أي أمانة تلك؟! يا الله! لا أكاد أصدق! أَكُلَّ ما حدث لنا كان لتصحبنا الأقدار إلى هذه القرية؟! كل هذا كان مجرد أسباب لإجابة دعاء هذا الرجل التقي؟!

قطع حبل أفكاري ووجومنا جميعًا من غرابة ما سمعنا صوت أبي وهو يسأل العم تقي سؤالًا وددت لو أسأله ولكن سبقني أبي فقال: عذرًا منك سيدي الإمام، لقد كنت وما زلت تنصحهم وتنهاهم عن عصيانهم لأنك رجل دين تعلم الحلال من الحرام ومؤكد أنك عن علم ودراسة ومع ذلك لم يستمعوا إليك فكيف يستمعون إلينا نحن ولسنا بعلماء ولا نعرف من أحكام ديننا إلا ما سمعناه من المشايخ في خُطب

أيـام الجُمـعِ والأعيـاد؟! الأمـر لـيس صـعبًا فقط لكنه مستَحيل.

أجابـه العـم تقـي: قبـل أن يؤسـس أجـدادنا هـذه القريـة مـا كـانوا علمـاء ولا أئمـة مسـاجد لكـنهم عاشـوا فـي عصـر سـاد فيـه الخطـاب الـديني فـي المسـاجد والشـوارع والمـدارس والكتاتيـب فحفظـوا جمـيعهم كتـاب الله وعرفـوا أحكـام دينـهم فطبقوهـا فـي حيـاتهم ووصـوا أبنـاءهم بـألا يحيـدوا عنهـا وأن يعيشـوا ويموتـوا علـى الإسـلام، حينمـا أسسـوا هـذه القريـة جلبـوا معهـم مجلـدات ضـخمة ثريـة بعلـوم الـدين والـدنيا ووضـعوها فـي مكتبـة ضـخمة ملحقـة بالمسـجد الـذي كـان أول مـا أُسـس فـي هـذه القريـة، ولكـن بعـدما جـرى مـا جـرى وعنـدما ازداد الخطـر قمـت أنـا وأصـحابي قبـل هجـرتهم بنقـل كـل تلـك الكتـب والمصـاحف إلـى غرفـة سـرية هنـا أسـفل بيتـي هـذا لأحمـيهم مـن بطشـهم. تلـك الكتـب هـي ميراثـي الـذي وهبتـه لكـم لتعينـكم علـى تعلـم

العلــوم وتعليمهــا لهــم بعــد أن يهــديهم الله على أيديكم...

قاطعــه أبــي قــائلًا: لكــن يــا ســيدي ليســت القــراءة كافيــة لنــتقن هــذه العلــوم، إنهــا تحتاج أعوامًا من الحفظ والفهم.

ولكــن العــم تقــي نهــض مــن مجلســه وهــو يقــول بحمــاس غيــر طبيعــي: ومــن قــال أنكــم ســتقرأونها فقــط؟ ســأعلمكم كــل مــا فيهــا طالمــا مــا زلــت علــى قيــد الحيــاة، وعنــدما يتوفــاني الله ســتكمل معكــم زوجتــي رســالتي فقد علمتها كل شيء.

ثــم وجــه حديثــه لزوجتــه وقــال: جهــزي لنــا طعامًا فقد أرهقهم الجوع.

ثــم نظــر إلينــا وتــابع: أمــا أنــتم فــاتبعوني إلــى مخبــأ الكتــب لأريكــم إيــاه ريثمــا تنتهــي كريمــة

من تجهيز الطعام وبعد تناوله نبدأ رحلة العلم.

تحمست وقلت له: فلنبدأها من فورنا، لماذا التأجيل؟

ضحك العم تقي -وتلك هي أول مرة يضحك فيها منذ قدومنا- وقال: تمهلي يا بنيتي، الجوع يضعف التركيز ويشتته، لنأكل أولًا وبعدها نبدأ بإذن الله تعالى. هيا اصحبوني.

تبعناه ففتح باب الغرفة وطلب منا أن ندلفها خلفه فدلفنا على استحياء فإذا به يتقدم نحو السرير الذي يستند إلى الحائط المقابل للباب، رفع السرير الذي كان عبارة عن لوح خشبي مغطى بملاءة فقط! ينام على لوح خشبي دون فراش وأهل القرية يتنعمون في الملذات! فوجئنا بالعم تقي يفتح بابًا حديديًّا أسفل السرير ويضع

قدمه فيه وينزل إلى الأسفل ثم نادانا لنتبعه، تبعناه واحدًا خلف الآخر فنزل الرجال أولًا ثم نحن عبر سلم حجري كأنه منحوت في صخرة، بعد أن نزلت مأوى وهي آخر من نزل أغلقت العمة كريمة الباب خلفنا فأصبح المكان مظلمًا ولكننا فوجئنا بشعاع نور يضيء المكان بخفوت ثم ازداد ضياؤه حتى أنار الطريق كله فنظرنا فإذا بالعم تقي يمسك بمصباح زيتي كبير مغطى بالزجاج يشبه القنديل فسألناه عن كيف أضاءه ومن أين أتى به فقال: إني دومًا أقوم بوضعه بجوار السلم واعتدت على موضعه فمددت يدي وأخذته وأدرت مفتاحًا في المصباح من أسفله فحرك هذا المفتاح مجموعة من التروس ومع سرعة حركتها أصدرت شرارة ناتجة عن الاحتكاك بين التروس الحديدية فأشعلت الفتيل المنقوع في الزيت فأضاء المصباح كما رأيتم، لقد صنعته بنفسي هو وكل المصابيح في بيتي فلا حاجة لي بشرارة نار لأوقد المصابيح بها ولا

كهرباء كالتي يستخدمها أهل القرية منذ زمن.

فسألته بفضول: إذًا كيف توقدون الموقد لصنع الطعام طالما لا تجدون شعلات ولا كهرباء؟

أجابني: لقد صنعت شيئًا صغيرًا يعمل بنفس الكيفية فنقرب الشرارة من الفحم فتشعله ثم نطفئ هذا الشيء الذي أسميته المشعل حتى لا نهدر الزيت. ها قد وصلنا.

نظرت حولي فوجدت أننا في نهاية الممر ولم أرَ أي أبواب والطريق مسدودة فأين تلك المكتبة إذًا؟! فجأة وجدت العم تقي يعطي المصباح لأبي ويخبره بأن يراقب جيدًا كيفية فتح الباب ثم وضع كفه الأيمن على الحائط أمامه في مقابل رأسه ووضع قدمه اليمنى على الأرض أسفلها ثم تراجع إلى الخلف حوالي متر ووضع قدميه

ملتصقتين على حجر ثم تحرك للأمام يسارًا ووضع قدمه اليسرى على الأرض وكفه فوقها في مقابل رقبته ثم تراجع إلى أقصى اليمين وجلس على الأرض وضم ركبتيه إلى صدره فسمعنا حينها صوت حجر يتحرك فإذا بالحائط أمامنا ينفتح من المنتصف طوليًا ويدخل كل نصف في الحائط المجاور كاشفًا عن باب بعرض المترين فقام العم تقي من جلسته وعبر الباب فعبرنا خلفه فرأينا على ضوء مصباحه غرفة ضخمة لا أستطيع تكهن كم مساحتها؛ غرفة مربعة جدرانها عالية وسقفها من الصخر وعلى جوانبها الأربعة أرفف من الأرض إلى السقف مليئة بمجلدات ضخمة، أما أرضية الغرفة فمفروشة بحصيرة كبيرة من الخوص ويتوسط الغرفة مكتب صغير وكرسي وفوقه مصباح زيتي تقدم العم تقي فأضاءه فازداد النور في الغرفة. وقفنا مذهولين مما تراه أعيننا للحظات من

الصمت قطعها صوت العم تقي وهو يقول: ما رأيكم في بيت العلم هذا؟

نطقنا جميعًا في آن واحد: إنه مذهل!

كان هناك ستارًا معلقًا في نهاية الغرفة فأشار إليه العم تقي وقال: هذا مرحاض. أنا أقضي معظم يومي هنا أنا وزوجتي أعلمها وأتلو القرآن، هذه ليست مكتبة فقط بل مسجد نصلي فيه جماعة اتخذته منذ أغلقوا مسجد القرية.

غلبته دموعه فبكى ثم تابع: وددت لو أصلي في المسجد مجددًا قبل أن أموت، كم اشتقت إليه وإلى خطبة الجمعة وصلاة العيد في الساحة التي تحولت الآن إلى ملهى يمارسون فيه معاصيهم، قلبي يتفطر كلما رأيت تلك الساحة التي كانت مكانًا يُعبد فيه الله وأصبحت مكانًا يبارزونه فيه بالمعاصي.

عم الحزن المكان وتفطرت قلوبنا جميعًا وكيف لا ونحن عباد الله يحزننا البعد عنه، يحزننا عصيانه خاصة ممن ينتمون للإسلام، اللهم قدرنا واجعلنا سببًا في توبتهم وإنابتهم إليك.

سمعنا صوت أقدام قادمة فارتجف قلبي ولكني هدأت عندما رأيت العمة كريمة وهي تدلف الغرفة تحمل على رأسها صينية الطعام، تناولنا طعامنا والذي كان عبارة عن خبز الشعير وبعض الخضر والفواكه ثم شربنا الشاي وبدأنا أول درس من دروس العلم وهو قيام الليل.

بعد أن أقمنا ما تبقى من الليل على صلاة الفجر ثم صلاة الفجر جلسنا حول الشيخ في نصف دائرة وبدأ يدارسنا علوم الدين أولًا، كان كل ساعتين يدارسنا علمًا منهم ولا نستريح إلا وقت الصلوات ووقت الطعام.

مـرت ثلاثـة أشـهر مكثنـاهم فـي بيـت العلـم هـذا كمـا يسـميه العـم تقـي نتـدارس العلـوم الشـرعية وعرفنـا كـل شـيء عـن ديننـا الحنيـف ولـم نخـرج فـيهم قـط مـن المخبـأ وكـذلك العـم تقـي، العمـة كريمـة فقـط مـن كانـت تخـرج تعتنـي بـالأرض وتأتينـا فـي أوقـات الطعـام والصـلاة ثـم تعـود إلـى البيـت حتـى إذا أتـى أحـد مـن القريـة ليسـأل عـن الشـيخ تخبـره أنـه مـريض ولكـن لحسـن حظنـا لـم يسـأل عنـه أحـد طيلـة هـذه المـدة، ربمـا لـم يلاحظـوا غيابـه أو لاحظـوه ولـم يهتمـوا ولكـن الأكيـد أنهـم فرحـوا وظنـوا أنهم استراحوا من نصحه للأبد.

بعـد أن أتممنـا الثلاثـة أشـهر جلسـنا حـول العـم تقـي فقـال: بفضـل الله أتممـتم مـا احتجـتم إلـى معرفتـه فـي علـوم القـرآن والفقـه والحـديث والعقيـدة وسـيرة الأنبيـاء والصـحابة وأتممـتم حفـظ القـرآن الكـريم بـالحفظ المكثـف فـلا خـوف علـيكم اليـوم، والآن أصـبحتم مسـتعدين لخـوض غمـار

المعركـــة الأخيـــرة، إمـــا أن يفـــتح الله علـــى أيديكم قلوب أهل القرية أو يقتلونا جميعًا.

الفصل الرابع عشر
"مواجهة"

لو قال لي أحدهم قبل عام وثلاثة أشهر أننا سنصل إلى مكان كهذا ونتعلم علوم الدين، ونحفظ القرآن في ثلاثة أشهر فقط، ونواجه عتاة ظالمين كأهل هذه القرية ونحن نحمل أرواحنا على أكفنا ما صدقته، ولكني الآن أعيش كل هذا عيانًا بيانًا، ولو كان العم تقي قال لي أنني ربما أُقتل منذ سنوات خلت لتملكني الرعب ولم أجاريه فيما يريده منا قط ولكن الآن بعد أن ازددت علمًا بديني ازددت يقينًا بربي وازددت به قوة وبأسًا ولا أخشى أحدًا سواه، اليوم أقولها من قلب مليء بالحماس أنني مستعدة للجهاد في سبيل الله بدعوة هؤلاء للعودة إلى ربهم ومستعدة أيضًا للموت في سبيل الله غير آسفة.

كان هذا آخر اجتماع لنا في المخبأ حيث أخبرنا العم تقي أن اجتماعنا فيه سيكون كل جمعة من بعد الفجر حتى فجر السبت لنصلي ونتعلم بقية علوم الدنيا، أما من الآن سننخرج لمجابهة أهل القرية فندعوهم إلى الله في صباح كل يوم وحتى الظهيرة ثم نذهب إلى أرضه ليعلمنا الزراعة وكيف نعتني بالأرض وليعرفنا على الأعشاب لنرث علم مداواة المرضى أيضًا.

صلينا الفجر وذكرنا الله ودعوناه بالتيسير وتوكلنا عليه ثم خرجنا وتوجهنا نحو بيوت القرية والتي كان أغلب أهلها في الشوارع يبيعون ويشترون، ما إن رأوا الشيخ يقترب عليهم حتى ملأت وجوههم علامات الضيق والغضب وسمعت بعضهم يقول: ظنناه مات، ألن يفنى أبدًا؟!

اغتظت بشدة وكدت أنهرهم ولكن تذكرت أول نصيحة نصحنا بها العم تقي: "الحلم،

هذا الخلق الرفيع لا بد أن تجعلوه منهجكم في التعامل مع أي عاصي، إن غلبتم أنفسكم نجوتم وإن غلبتكم وأعماكم الغضب هلكتم فلا استفدتم ولا أفدتم."

اقترب بعض الرجال من العم تقي وقال له أحدهم بغضب وقد احتقن وجهه: من هؤلاء يا رجل؟ ألا تعلم قوانين القرية التي تمنع أن يدخلها الغرباء؟ كيف تفشي سر قريتنا لغريب؟

وقال آخر: لقد خنتنا يا رجل ولا بد من عقابك.

التف عدد غفير منهم فجأة حولنا وانهالوا علينا ضربًا وكادوا يقتلوننا ثم تركونا وانصرفوا، ساندنا بعضنا وقررنا أن نعود إلى البيت ولكن أوقفنا صوت العم تقي يقول بصعوبة: لم أخنكم قط، لو كنت خائنًا لدعوت عليكم بدلًا من الدعاء لكم، لم

أخرج من القرية قط وأنتم تعلمون ذلك، هؤلاء ضيفي أتوا إلى القرية تائهين فاستضتفتهم وعاهدوني على أن يعينوني في نصحي لكم وأن يكملوا المسيرة من بعدي، وجدت فيهم ما ليس فيكم؛ الإيمان والتقوى، وأُشهد الجميع أنني تنازلت لهم عن أرضي وبيتي ومن اليوم فصاعدًا أصبحوا من أهل القرية لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ولا يحق لأي أحد التعرض لهم بسوء، وأشهدكم أنهم ورثتي سيخلفوني فيكم بعد مماتي فاستمعوا لهم ولا تطغوا حتى لا يحل عليكم عذاب ربكم فإني أخاف عليكم عذابه في الدنيا والآخرة، ألا قد بلغت اللهم فاشهد...

وسقط العم تقي الدين وقد فاضت روحه إلى بارئها. التففنا حوله وقد احتضنته زوجته تبكيه ونبكيه معها وقد تفطرت قلوبنا حزنًا على من كان لنا سندًا ومعلمًا وأبًا، نظرت حولي فإذا بالناس قد انفضوا من حولنا ولم يهتموا لموت الرجل الذي

كان أخوف عليهم من أنفسهم، لم يبكوه ولم يأبهوا له! لم يتذكروا له حسنة واحدة من بحار حسناته! ألهذه الدرجة قلوبهم قاسية؟! ولمَ العجب يا ملاذ وقد جحدوا نعم خالقهم؟ فما العجب في جحودهم فضلًا لبشر مثلهم؟!

حمل أبي الشيخ النحيل على يديه وتوجهنا نحو بيته ونحن نجر أقدامنا من شدة الوهن الذي أصابنا بضربهم لنا وفقدنا للشيخ الغالي، وصلنا بيته فأدخله أبي غرفته وغسله هو وعمي وأخي وابن عمي وكفنوه وصلينا عليه نحن الثمانية فقط في صالة بيته ثم حمله رجالنا الأربعة إلى قبره الذي جهزه في نهاية أرضه فدفنوه ودعونا له وبقينا بجواره نؤنس وحدته في ليلته الأولى ونرجو أن يتقبله الله في الشهداء.

كانت أمي تحتضن العمة كريمة التي لم تكف عن البكاء قط على شريك حياتها

وحبيبها وونيسها في هذه الدنيا التي عاشتها برفقته وحده دون ابن أو أخ أو أقارب، ساندته وساندها فحق لها أن تحزن عليه حزنًا لا نهاية له، رفضت أن تتركه فبقينا بجوارها أمام قبره حتى الصباح لا نتركه إلا وقت الصلاة، كانت تخشى أن ينبشوا قبره ولكننا استودعناه الله الحفيظ.

مرت الأيام ونحن نفعل كما كان يريد الشيخ؛ ندعوهم من الفجر إلى الظهيرة ثم نذهب إلى أرضه حتى المغرب نعتني بها وتُعلمنا زوجته كل ما علمها إياه عن الأعشاب والعلاجات ثم نقضي باقي الليل بين النوم والصلاة، كما أننا كنا نقضي يوم الجمعة كما خطط الشيخ ولكن المعلم هذه المرة كانت زوجته وخطيب الجمعة وإمامنا منذ وفاة الشيخ كان أبي. استمر بنا الحال هكذا كل يوم لمدة شهرين حتى كدنا نيأس فاجتمعنا بعد صلاة الجمعة وتناقشنا في الأمر فقلت لهم: هؤلاء

النـــاس لا يتحـــرك فـــيهم ســـاكنًا، يبـــدو أنهـــم اعتـــادوا علـــى تلـــك الـــوتيرة اليوميـــة مـــن النصـــح فألفوهـــا وأصـــبحت لا تـــؤثر فـــيهم، أظـن أننـا يجـب أن نغيـر مـن الأسـلوب قلـيلًا ربما التغيير يثير انتباههم فيستجيبوا لنا.

أُعجـب الجميـع بفكرتـي فسـألني أبـي: برأيـكِ مـا التغييـر المناسـب الـذي نقـوم بـه؟ هـل ندعوهم في الليل بدلًا من الصباح؟

ولكننـي أجبتـه نافيـة: كـلا، الليـل بالنسـبة لهـم هـو بيـت الـداء، هـو وقـت غفلـتهم، ومهمـا قلنـا لـن ينتبهـوا لنـا وهـم سـكارى غـارقين في الذنوب.

قـال موئـل بحمـاس: أتقصـدين أن نتوقـف عـن دعـوتهم لفتـرة حتـى ينتبهـوا لغيابنـا وبعـد أن نعـود ينتبهـوا لعودتنـا ويهتمـوا لمـا نقول؟

أجبته بأسى: كلا، ليست فكرتك بالفكرة الصائبة يا موئل، لقد رأيت كيف أنهم لم ينتبهوا لغياب العم تقي -رحمه الله- من قبل لثلاثة أشهر وبعدما عاد لم ينتبهوا له إلا لاستنكارهم وجودنا وكانت النتيجة أن ضربونا ومات العم تقي.

قال عمي باستنكار: ماذا إذًا؟ كيف سنغير أسلوبنا معهم؟

أخبرتهم بما يدور في رأسي فأعجبهم وعزمنا على تنفيذه من الغد إن شاء الله.

بعد صلاة الفجر توجهنا إلى أهل القرية فناداهم أبي: يا أهل القرية.. يا أهل القرية... إلي إلي.

كان صوت أبي عاليًا كأنه يخرج من أعماقه فيرتطم بالهواء فيزداد انتشارًا ووضوحًا. بعد لحظات بدأ أهل القرية

يتجمهرون حولنا وأعينهم ممتلئة بنظرات التساؤل والغضب. لم يمهلهم أبي ليسألوه عن سبب ندائه لهم فباغتهم بقوله: يا أهل القرية، خلقكم ربكم لتعبدوه فخالفتم مشيئته وتركتم عبادته، ميزكم بالعقل لتتفكروا وتشكروه على نعمه فكفرتم بها وجحدتم فضله، منحكم هذه الأرض فبدلًا من أن تطأوها إلى طاعته وطأتموها إلى معصيته وأصبحت تئن بالبغض لأفعالكم وتلعنكم، رزقكم الله من كل الخيرات سهلة هينة هنية فلم تشكروه واستخدتموها في معصيته، أطعمكم بها حلالًا طيبًا فاخترتم أن تملأوا أجوافكم بالمحرمات، استبدلتم الخبيث بالطيب وتجبرتم وعاندتم وظننتم أن إمهال الله لكم هو خير وأعانكم ما أنتم فيه من نعيم ونسيتم أن الله استدرجكم به، أنتم جميعكم قارئون وتعلمون ما حل بالأمم السابقة التي جحدت نِعم ربها وكفرت به، وتعلمون علم اليقين أن الله يرسل إنذارات للعصاة لعلهم يرجعون فإن لم يرجعوا يستدرجهم من حيث لا يعلمون،

ثم ماذا تظنون أنه فاعل بكم بعدها؟ يأخذكم بغتة فتخسرون الدنيا والآخرة، خبروني أيهما تفضلون يا أذكى التجار؟ أتفضلون نعيم الحياة الدنيا الذي يزول بعد أعوام قليلة أم نعيم الآخرة الذي ليس له مثيل وليس له حدود ولا نهاية؟

فلتختاروا اليوم بل الآن إلى أي صف ستنتمون؛ صف الدنيا أم الآخرة؟ سأنتظركم في المسجد إن لم تكونوا نسيتم مكانه، وآخر موعد لكم هو صلاة العشاء إن لم تجتمعوا فيها خلفنا تُصلون لربكم وتطلبون منه المغفرة فسنحاصركم في الساحة التي تعصونه فيها حتى تهلكوا وينزل عليكم العذاب وحدكم هناك دوننا، ولا تظنوا أنكم ستتكاثرون علينا وتقتلونا كما قتلتم أصحاب الشيخ تقي دون جرم جنوه إلا رغبتهم في الخير لكم. أحذركم أننا صنعنا عقارًا سامًا يعذب كل من أصابه بالجنون والجذام والنَتن لمدة شهر ثم يقتلهم، لن نخبركم كيف ينتشر

سنترككم تتفاجأون، وإن نويتم الغدر والخديعة فسنعرف وسيكون العقاب مضاعفًا، فلدينا من العقارات الكثير وتحتاج إلى فئران تجارب ولن نجد أنسب منكم. أرجو ألا تدعونا ننتظر كثيرًا.

أنهى أبي كلماته وغادر فتبعناه إلى المسجد، كسرنا الأقفال التي وضعوها عليه وما إن فتحنا بابه حتى استقبلنا التراب الذي عبأ جوانبه فشرعنا في تنظيفه لعله ينعم باستقبال مصلين غيرنا اليوم.

الفصل الخامس عشر
"حصار"

ما أبهاه من مسجد! دومًا ما أشعر أن المساجد هي جنة الله على الأرض. عندما فتحنا المسجد لأول مرة بعد إغلاقه لعشر سنوات كانت الجدران حزينة، غطتها الأتربة وخيوط العناكب ولكن لم يحزنها ذلك بل أحزنها توقف صوت الأذان الذي كان يرج أركان المسجد والقرية كلها رجًّا، أحزنها ألم فراق التكبيرات والقرآن واجتماع الناس لأداء الصلوات الخمس، أحزنها توقف خطبة الجمعة أبهى الخطب وأطيبها، كل ذلك كان يحزنها فيما مضى لكن الآن وبعد أن نظفناه وغسلنا أرضيته وجدرانه وسجاده شعرت أن كل ركن فيه يبكي فرحًا ويزهو شوقًا لأول أذان سيرج أركانه بعد طول فراق. كنا قد اجتهدنا نحن الثمانية في تنظيفه بأقصى قوة لدينا لننتهي من مهمتنا قبل موعد صلاة الظهر، وها قد حانت اللحظة التي ننتظرها

بشوق وينتظرها المسجد قبلنا، توجه أبي نحو الميكرفون الذي أوجعه الصمت والصدأ فشغله أبي وجربه فوجده ما زال صالحًا للاستخدام، هيأ أبي نفسه ووقف في جلال وإكبار وأخذ يؤذن فارتجت قلوبنا وارتج المسجد وارتجت القرية كلها فوجدت أهلها يتوافدون خارج المسجد لينضموا لمن سبقوهم وكانوا يراقبوننا منذ أن تركناهم. انقسمت ملامح وجوه أهل القرية ما بين غاضب يضع يديه على أذنيه وما بين عيون حيرى وعيون عادت إليها الذكريات وما بين عيون يملأها العجب من تلك الكلمات التي يسمعونها لأول مرة في حياتهم وكانوا هم الأطفال الذين وُلدوا في حياة المعصية. ظلوا واقفين يراقبونا حتى انتهينا من صلاتنا وجلسنا في المسجد نقرأ القرآن فيأسوا من خروجنا وعادوا إلى مشاغلهم، لم يجرؤ أحد منهم على أذيتنا في المسجد ليس خوفًا منا ولكن خوفًا من المسجد نفسه، يبدو أنهم يخشون أن تدركهم رقة

الاشـــتياق إن دلفـــوه، أو لا أدري ربمـــا مـــا زالت في قلوبهم ذرة توقير لبيت الله!

مـرت السـاعات ونحـن فـي المسـجد، تعاقبـت علينـا الصـلوات ومـا زال الأمـل يحـدونا. كنـا قـد أحضـرنا معنـا مـا يكفينـا مـن الطعـام والمـاء لمـدة أسـبوع وكـذلك أحضـرنا الأعشـاب التـي سـنعاقبهم بهـا. اقتربـت اللحظـة الفارقـة وهـي صـلاة العشـاء، اقتربـت فاقتربـت فحانـت فأقيمـت ولـم يـأتِ إلينـا أحـد، يبـدو أنهـم لـم يصـدقوا تهديـدنا لهم فقررنا أن نمهلهم يومًا آخر.

فـي الصـباح تجمهـروا مـرة أخـرى أمـام المسـجد ولكـن نظـراتهم هـذه المـرة كانـت محملـة بالسـخرية. أخـذوا يتغـامزون ويتلامـزون علينـا ويسـبونا بأشـنع الألفـاظ ولكننـا كنـا نبتسـم ولا نجيـب ممـا زاد حـنقهم وانفضـوا مـن حولنـا. بعـد أن اختفـوا توجـه أبـي نحـو ميكروفـون المسـجد وشـغله وقـال: {إِن تَسْـخَرُواْ مِنَّـا فَإِنَّـا نَسْـخَرُ مِـنكُمْ كَمَـا

تَسْخَرُونَ} أتظنون أنكم فزتم بعدم تنفيذ ما أمرتكم به؟ إن الله يمهل ويعذر ويرحم لكن البشر لا يمهلون ولا يعذرون ولا يرحمون، والليلة موعدكم مع العذاب الأليم.

مر اليوم كسابقه وليلته كسابقتها دون أن نقترب منهم أو يقتربوا منا، وفي الصباح فعلوا مثلما فعلوا الصباح الماضي ولكنا أغلقنا باب المسجد في وجوههم. كنت أراقبهم من النافذة وقد تسمروا أمام المسجد في وجوم وهمهمات تنم عن حيرة وعجب. لم يهددهم أبي اليوم ولم يفتح باب المسجد الذي لم يطرقه أحد، وبعد صلاة العشاء تسلل رجالنا إلى الساحة التي يجتمعون فيها لعصيان ربهم، انتظر الرجال حتى أعمى أهل القرية السكر ونفذوا خطتهم.

فتحنا المسجد في اليوم التالي وخرجنا نستطلع أخبارهم فوجدناهم في الساحة

وقد أسرناهم بداخلها وقد أنهكتهم محاولات الخروج، رأونا نقف بعيدًا عنهم فتجمهروا يحاولون الخروج للنيل منا لكن هناك شيء ما يمنعهم! ملأوا الساحة صياحًا وأخذوا يسألونا تباعًا:

- ماذا فعلتم بنا؟

- كيف حبستمونا دون أسوار؟!

- ما الذي فعلتموه بنا ليلًا؟

- أنتم سحرة، لن نتركم أحياءً.

انفجرنا ضحكًا عندما اتهمونا بالسحر مما زادهم غضبًا ظاهرًا وخوفًا باطنًا، الخوف مفيد أحيانًا! فمن لا يأت بهم الترغيب يردعهم الترهيب. تركناهم يكابدون الحصار بما فيه من جوع وعطش وخوف وعدنا أدراجنا إلى المسجد والذي أضحى بيتنا بعد أن عشنا أشهرًا بدونه، فهو نعمة عظيمة لو تعلمون.

كررنا الأمر كل يوم؛ نذيقهم من العذاب ألوانًا ليلًا ونذهب لنراهم نهارًا وينهالون علينا بالسباب ونستمر نحن في الضحك.
وبعد عشرة أيام أنهوا فيها ما لديهم من طعام كان أمامهم في أول ليلة، كان الطعام أمامهم كثيرًا كما اعتادوا حيث يسرفون في الطعام كل ليلة كما يسرفون في المعصية، لا أدري كيف تنتهي كل هذه الكميات من الطعام والشراب بعد عشرة أيام فقط؟! لو أنهم لم يسرفوا في استهلاكها لما انتهت ولكنهم اعتادوا على الشراهة في كل شيء، ويبدو أنهم توقعوا أن ينتهي الحصار سريعًا وأن لا يتأخر لكل هذا الحد، حتى بعدما أخبرونا أن الطعام قد نفد طمعًا في أن نطلق سراحهم لم نفعل فما زال لديهم الكثير من العذاب لعلهم يرجعون، أجسادهم قوية ستتحمل كثيرًا من الجوع والعطش ولكن ضياع ما اعتادوا عليه من ترف سيزيد عذابهم النفسي والجسدي.

مـرت خمسـة أيـام أخـرى وهـم يكابـدون الجـوع والعطـش ويصـطرخون لـيلًا نهـارًا طلبًـا للرحمـة فكـان رد أبـي علـيهم: أنيبـوا إلى الله تنعموا في الدنيا والآخرة.

لكـنهم عنـدما يسـمعون هـذه الجملـة يبتعـدون عنـا ولا ينصـتون، وبعـد ثلاثـة أيـام أخـرى ازداد فيهـا عـذابهم بـدأت بعـض القلـوب تلـين ولـم يتولـوا عنـا كعـادتهم، كانـت تلـك القلـوب هـي لأطفـال لـم يتحملـوا مـا يلاقـون، ولنسـاء أضـعف مـن أن يتحملـوا، وانضـم إلـيهم بعـض النسـوة العجـائز والرجـال الشـيوخ، أمـا الشـباب وأغلـب كبـار السـن فقـد أخـذتهم العزة بالإثم ولم يتقبلوا أن ينصتوا إلينا.

بـدأ الواقفـون يلقـون علـى مسـامعنا الأسـئلة وبـدأنا نجيـبهم بمـا فـتح الله بـه علينـا ودار الحوار بيننا.

قال رجل مسن: لماذا كل هذا العذاب؟ أليس الإسلام دين الرحمة؟

أجابه أبي: لم نعذبكم بغضًا لكم أو طمعًا في أموالكم، إنما حاصرناكم لتستشعروا نعم الله عليكم وأنكم قد تفقدونها في أي لحظة ولن ينفعكم حينها عصيانكم لربكم، أما عذاب الليل فهذا ليحاسب كل منكم نفسه لعله يدرك أنه ظالم لنفسه مبين.

فقال طفل وهو يبكي: وما ذنبنا نحن الأطفال؟! لمَ لا ترحموا ضعفنا؟ لقد وُلدنا فوجدنا آباءنا هكذا فصرنا نفعل مثلهم، لم يعلمنا أحد منهم من هو الرب وكيف نطيعه، لم يعلمونا أن ما نفعله كل يوم يغضب خالقنا، لماذا تؤاخذونا بذنبهم؟

أجابته العمة كريمة: ليس لكم ذنب! هذا إن لم يكن هناك من ينذركم ويعلمكم، أتنكرون أن العم تقي ومن بعده ورثته

هؤلاء لم يكل لسنوات عن دعوتكم كل يوم وتذكيركم بالله؟ أي عذر لكم وقد أتاكم من يعلمكم دينكم فقتلتم من قتلتم وشردتم من شردتم وعذبتموني وزوجي وهؤلاء الناس؟ اعذرني يا بني فليس لك عذر.

انتحبت النساء وقالت إحداهن: ليتني ما أطعت أبي وزوجي، ليتني ما عصيت ربي، كنت كل يوم أعزم على التوبة بعد أن يرق قلبي لموعظة الشيخ تقي ولكن سرعان ما أضعف وتغلبني نفسي ويغلبني شيطاني، ولكني لم أعد أقدر على النأي عن ربي، أريد أن أتوب بحق فلا تتركوني هذه المرة ليغلبني ضعفي، أرجوكم خذوا بيدي.

قلت لها وأنا أخشى أنها تخدعنا: وما الدليل على صدقك؟

أجابتني المرأة ورأسها منكس: لا أعرف كيف أبرهن لكم ولكن اختبروني،

أخرجـــوني مـــن هنـــا وعلمـــوني دينـــي وأعيدوني إلى ربي.

قـال الأطفـال فـي آن واحـد: ونحـن أيضًـا قـد اتفقنـا فيمـا بيننـا أن نطلـب مـنكم أن تعلمونـا عن ربنا وكيف نعبده، نرجوكم.

نظـر أبـي إلـى المسـنين الـواقفين أمامنـا وبقيـة النسـوة وسـألهم: وأنـتم، ألا تريـدون أن تتعلموا أنتم أيضًا؟

لـم يجيبـوه واكتفـوا بـالنظر لبعضـهم الـبعض في صمت.

ابتسـم أبـي وتـابع: مـن اليـوم فصـاعدًا لا أريـد أن يقـف أمـامي أحـد مـنكم سـوى مـن يريـد الـتعلم، وسـنأتي كـل يـوم لـنعلمكم ونراقبكم هل ستطبقون ما تعلمتموه أم لا.

سأل أحد الأطفال: ألن تخرجونا من هنا؟

أجابه أبي: ليس إلا بعد أن يطمئن قلبي بإيمانكم الحق.

فسأله طفل آخر: كيف سنقوى على فهم وتطبيق ما نتعلمه ونحن جائعون وظامئون وخائفون؟

أجابهم أبي: في الصباح بإذن الله سأجيبكم.

ثم تركناهم وعدنا إلى أرض العم تقي فحصدنا أعشابًا وفواكه وخضروات كثيرة، ثم انهمكنا نحن النسوة في إعداد الكثير من الخبز وانهمك رجالنا في إعداد خلطات الأعشاب، وبعد أن أنهينا مهامنا حملنا ما أعددناه إلى المسجد وأغلقنا بابه خلفنا واستسلمنا للنوم لنريح أجسادنا استعدادًا لما انتويناه غدًا بإذن الله.

الفصل السادس عشر
"طلاب العلم"

قبل صلاة فجر اليوم التالي توجهنا إلى الساحة فوجدنا الناس فيها كالمجانين، كل منهم تائه في عالمه ويتصرف بغرابة، منهم من ينظر للآخرين ويصرخ بهلع ويقول: "النار، النار خلفكم، اهربوا." ثم يهرول في كل اتجاه وهو يردد كلماته، ومنهم من يحاول الطيران فيسقط على ظهره صارخًا من شدة الألم ثم ينهض ويعيد الكَرة، ومنهم من تهرول هنا وهناك تصيح بهم أن يعطوها حجابًا مدعية أن ملك الموت يريد حصد روحها، ومنهم من يحفر قبره بيده ثم يستلقي فيه منتظرًا من يهيل عليه التراب ولكن الجميع مشغول عنه، ومنهم من يصرخ بفزع من قوة ما يراه من هلاوس. جميعهم يهلوس ويرى ما لا يراه غيره، منهم من يرى معصيته تتجسد أمامه ومنهم من يرى أكثر شيءٍ يخيفه، رأيت طفلًا يهرول صارخًا:

"عقرب ضخم يريد أن يمتص دمي." وتلك الفتاة تصرخ وتقول: "صرصار، أبعدوا هذا الصرصار الضخم عني، إنه يطير ويريد أن ينقض علي."

ما كنت أظن أن فكرتي ستكون بتلك البشاعة التي لا أستطيع وصفها لكن لا بد أن نستمر.

حول الساحة من جهاتها الأربع وضع رجالنا أربع مضخات صنعناها بأنفسنا، هذه المضخات مدفونة تحت الأرض بعمق بسيط ولا يظهر منها سوى أنابيب صغيرة تشبه الشعيرات الدموية تنتشر فوق سطح الأرض مباشرة في خطوط أفقية تتصل ببعضها وتحيط بالساحة من كل جوانبها فأصبحت كالسد المنيع لكن لا يستطيع أحد رؤيته لأنه مموه فهو بلون التراب وتغطيه طبقة رقيقة من التراب تمنع رؤيته ولا تمنع أثره، تلك المضخات متصلة ببعضها البعض من الأعلى عن طريق الشعيرات

ومن الأسفل عن طريق أنبوب دائري بقطر عشرة سنتيمترات يخرج من كل مضخة حتى يتقاطعوا جميعهم في أنبوب أكبر قليلًا بقطر عشرين سنتيمترًا، يمتد ذلك الأنبوب في خط مستقيم حتى يصل إلى أرض العم تقي مرتفعًا عن سطح الأرض ليتصل بمضخة أكبر من الأربع مضخات الأُخر وفي أعلى المضخة حوضٌ له غطاء نضع فيه الأعشاب ونُدير المضخة فتضخ الأعشاب إلى المضخات الأربع اللواتي يَقُمن بتحويل الأعشاب المطحونة إلى غاز ينتشر في الهواء عن طريق الشعيرات باتجاه داخل الساحة فيستنشقه الناس ويشعرون بالأثر الذي نريد أن يشعروا به، بعد غروب الشمس يذهب أبي وعمي إلى أرض العم تقي ومعهم العشب المراد وهو عبارة عن مجموعة أعشاب تسبب الهلاوس مزجناها سويًّا لنستفيد من أثرها المحفز للهلاوس البصرية والسمعية والمنامية ونتفادى أثر العنف الذي تصنعه عبر إضافة أعشاب

أخرى مثبطة، عندما يضعانه في المضخة ويغلقان غطاءها بسرعة منعًا لتسربه إلى الهواء وإليهما رغم ارتدائهما أقنعة صنعناها لتمنع وصول الغازات إلينا والتي نرتديها الآن ريثما ينهي أبي وعمي عملهما.

بعد قليل عاد أبي وعمي بعد أن وضعا في المضخة أعشابًا منبهة ليستفيق هؤلاء سريعًا، بالطبع كل الأعشاب التي نضعها في المضخة تنفد بعد تشغيل المضخة بساعة واحدة لكن أثرها يبقى في العقل فترة طويلة ولا يزول إلا بالأعشاب المنبهة والتي يزول أثرها بعد ساعات قليلة ويعود للجسم نشاطه العادي، انتظرنا حوالي ربع ساعة حتى بدأوا يهدأون ويكفون عن الصراخ واستفاقوا فنظروا نحو مصدر الضوء فرأونا أمامهم نحمل مصابيحنا الزيتية، تجمعوا قبالتنا فقال لهم أبي بحسم: فليتراجع كل من بقي على غيِّه، لا أريد أمامي هنا سوى من يريدون

أن يتعلموا عن ربهم ودينهم فقط، من سيخالف أمري سأسلط عليه عذابًا شديدًا لا قبل له به، ذلك العذاب لن ينتهي مثل سابقه بعد ساعات بل سيفضي إلى الموت مباشرة، هيا نفذوا ما أمرتكم به.

ارتعد الجميع وانصرف من لا يود التعلم وبقي أمامنا حوالي عشرين شخصًا فقط ما بين مسنين ونساء وأطفال ليسوا جميعهم من اتفقوا معنا بالأمس فالكثير منهم تراجع لكن لعل هؤلاء يكونون بادرة أمل.

كنا قد نزعنا الأقنعة وخبأناها عندما ثبط صراخهم والآن بعدما اقتربوا منا شعرنا بهبوب رائحة عفنة تكاد تقتلنا من شدة بشاعتها، كانت تلك الرائحة هي رائحة أجسادهم التي لم يلمسها الماء منذ 19 يومًا وكان هذا عقابنا لهم بالعفن كما أخبرناهم والذي هم في طريقهم إليه.

سألت أبي باستهجان: أبي، كيف سيُصلون معنا وهم بهذه الرائحة البشعة؟

ابتسم أبي وقال لي: لا تقلقي، ستزول بعد قليل.

ثم تركني واقترب منهم وقال لهم بحسم: انتووا الاغتسال في قلوبكم ولا تتلفظوا بالنية وقلدوا ما أفعله.

تيمم أبي فقلدوه وبعد أن انتهوا شعرت أن الرائحة البشعة قد اختفت وكأنهم اغتسلوا في نهر جارٍ، بعدها قال لهم أبي: الآن سأؤذن لصلاة الفجر وبعدما أنتهي سأصلي السنة وبعدها أعلمكم كيف تصلونها فتفعلون مثلما أقول لكم دون أن تتلفظوا بأي كلام جانبي سوى ما أخبركم أن تقولوه، وبعد أن تسلموا سأعلمكم كيف تصلون الفجر خلفي، ولكن الآن فلتنطقوا الشهادتين من قلوبكم، أعلم أن قلوبكم لم

يـدخلها الإيمـان بعـد ولكـنكم مسـلمون حتـى لـو خـالفتم الإسـلام فـي قـولكم وفعلكـم ولكـن عنـدما تـؤدون فريضـة ربكـم فهـذا جـزء مـن تعرفكم عليه الذي ترغبون.

قـال أبـي الشـهادتين ورددوهـا خلفـه ثـم تـركهم وأذن للفجـر ثـم صـلى السـنة وصـليناها نحـن أيضًـا وقـد أخبـرهم أبـي أن يراقبونـا ليسـهل علـيهم الـتعلم، بعـد أن سـلمنا مـن سـنة الفجـر وقـف أبـي علـى مقربـة مـنهم ووجههـم شـطر القبلـة وأخـذ يعلمهـم كيـف يصـلون وهـم يفعلـون كمـا يقـول بالضـبط وسـاعدتهم علـى ذلـك رؤيـتهم لنـا ونحـن نصـلي، بعـد أن سـلموا أخبـرهم أبـي كيـف سنصـلي الفجـر ومـاذا يفعـل المـأموم وأخبـرهم أن ينظمـوا الصـفوف ويصـلي النسـاء خلـف الرجـال، وقـف أبـي موقـف الإمـام واصـطففنا خلفـه فـي صـف يبـدأ مـن اليمـين بعمـي بجـواره ابنـه ثـم أخـي ثـم أمـي ثـم أنـا وأختـي والعمـة كريمـة ومـن خلفنـا طـلاب العلـم كمـا أسـميتهم وقـد اصـطف

الرجال ومن خلفهم الأطفال ثم النساء. بعد أن أنهينا الصلاة جلس أبي على الأرض في قبالتهم وجلسنا حوله وجلس الطلاب أمامنا وبدأ أبي يتلو أذكار بعد الصلاة ونحن وهم نرددها خلفه ثم أذكار الصباح كذلك، وبعد أن انتهينا استرحنا ربع ساعة حتى لا يملوا طُفنا فيها عليهم بقربة ماء كادوا يختطفونها منا لولا أن أوقفهم صوت أبي قائلًا: بنظام، العشوائي سيعاقب، تعلموا الأدب والنظام في قولكم وفعلكم، سيطوف عليكم موئل بقربة الماء التي يحملها وسيملأ الأكواب التي بيد أبيه وأخيه والأربع نساء والذين بدورهم سيناولون كل واحد منكم كوبًا في دوره ليشرب ويرتوي ثم يتراجع ويقدم من خلفه، قولوا "بسم الله" قبل أن تشربوا، لا تشربوا الكوب على دفعة واحدة حتى لا يحدث لكم ضرر بعد طول عطش، اشربوه على ثلاث دفعات وأنتم جلوس وهذا هو أدب الشرب في الإسلام، بعد أن تنتهوا

قولوا: "الحمد لله الذي سقانا هذا الماء ورزقنا إياه من غير حول منا ولا قوة".

نفذوا كما قال أبي بانصياع تام دون جدال وكأن قلوبهم اتفقت على طاعته.
بعدما انتهوا من شرب الماء بدت على ملامحهم علامات الامتنان والراحة والاستعداد للتعلم. أمرهم أبي بالجلوس فجلسوا ووجهوا وجوههم نحوه وألقوا إليه بسمعهم وأبصارهم توقًا لأول درس من أشرف العلوم وأهمها وهو علم العقيدة والذي بدأه أبي بأهم درس في الوجود "من هو الله؟".

كان أبي يشرح بحب فبلغت كلماته العقول والقلوب فاخترقتها واستقرت بها، كان المستمعون ينصتون بدهشة ممزوجة بالاشتياق لسماع المزيد وكأن ما يقوله أبي هو الماء الذي هطل على صحراء قاحلة، فقلوبهم عطشى للتعرف على إله تعبده وتسعى لرضاه، الحياة دون إيمان لا

معنى لها، كيف يحيا الإنسان دون أن يقول "يا رب"؟ كيف يعيش وهو يظن أنه وحده في هذه الدنيا لا يوجد إله يسمعه ويجيب نداءه؟ الحياة البعيدة عن الله كلها شقاء وإن كانت محملة بكل أسباب السعادة فلن يشعروا بها لأن السعادة تنبع من اليقين أن ما أنت فيه هو منحة إلهية تنم عن رضا الله ورحمته بك وحبه لك، هم يعلمون أن ما هم فيه استدراج وغضب حتى وإن أنكروا ذلك لذا لن يتحصلوا على السعادة مهما توهموا ذلك، ومن أجل ذلك تاقت قلوبهم لمعرفة الله ولكن التذبذب بين الطاعة والمعصية كان حاجزًا بينهم وبين القرب من ربهم وكنا نحن لهم طوق النجاة إذ فرضنا ذلك عليهم. رغم أن أغلب الناس لا يحفزهم على التوبة فرضها عليهم بل يزيدهم بعدًا كما حدث مع البقية لكن هذا الإجبار ينجح فقط مع من يرغب في حياة الطاعة ولكنه لا يعرف كيف يترك حياة المعصية حتى وإن حاول ذلك فإن نفسه وشيطانه يقيدانه

فيرغب فيمن يسحبه بقوة من بين قيوده ليخرجه من الظلمات إلى النور، وإني لأطمع أن نكون طوق النجاة لهؤلاء.

أنهى أبي الدرس بعد ساعتين وقام لصلاة الضحى فصلينا خلفه ثم منحناهم الماء مرة أخرى وبدأنا الدرس التالي والذي يحكي عن بداية الخلق والذي سنعلمهم فيه سيرة كل الأنبياء حتى ننتهي بسيرة سيد البشر سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم وعلى جميع أنبيائه ورسله-.

بعد صلاة الظهر يعلمهم أبي قيمة ذكر الله وما هي الأذكار الموظفة والمطلقة ومتى وكيف يقولونها وكيف يدعون الله. أما بعد صلاة العصر فيكون موعدنا مع أذكار المساء ثم يقرأ أبي وجهًا من القرآن يرددونه خلفه ويشرحه لهم ويعلمهم حكمًا تجويديًّا. وبعد المغرب يكافئهم أبي بوجبة صغيرة لكل واحد منهم ويعلمهم فضل الصدقة وخلق من أخلاق الإسلام ثم بعد

صلاة العشاء يعطيهم أبي زجاجة ماء صغيرة ووجبة صغيرة ويخبرهم أن يتصدقوا بها على بقية إخوانهم إن أرادوا الجزاء من ربهم أو يتناولونها إن أرادوا، فالخيار لهم وحدهم.

استمر هذا المنوال كل يوم لمدة عشرين يومًا كان فيهم جميع طلابنا يتصدقون بالوجبة والماء الَّذَيْن ينالوهما بعد صلاة العشاء وبعدها نتركهم ونذهب وبعد ساعة نضع الأعشاب في المضخة ونعود للمسجد ننام قليلًا ثم نستيقظ قبل الفجر نقوم الليل ثم نتوجه إلى الساحة نعيد نفس المنوال اليومي والذي تغير بعد تلك الأيام العشرين.

الفصل السابع عشر
"اختبار الإيمان"

يأبى الشيطان أن يدعك تسلك طريق الطاعة وتترك الطريق التي رسمها لك، إنه لا يريدك أن تفعل ما أبى هو أن يفعله، لا يريدك أن تطيع ربك وتُكافأ بالجنة ويُلقى هو في النار وهو يظن أنه أفضل من بني آدم ويريدهم أن يضلوا مثله فذاك الأمر يشعره بالانتصار على آدم وذريته، آدم الذي يوم خُلق ظهرت حقيقة إبليس التي أخفاها عن الملائكة بورعه الزائف ولكن الله كان يعلمها. وهكذا حال إبليس منذ بدء الخليقة إلى قيام الساعة؛ لن يدع مُسلمًا يهنأ بطاعته، وهكذا فعل لهؤلاء الطلاب الذين اجتهدنا معهم خلال عشرين يومًا علمناهم فيها كيف يُصلون ويصومون ويُزكون ويتصدقون، علمناهم أساسيات العقيدة والفقه والتجويد وغيرها من علوم الدين، كما علمناهم الأخلاق وآداب الإسلام، علمناهم كل ما يسعى أي

أب لتعليمه لأطفاله ليشبوا على طاعة الله ورضاه. رأينا ثمرة تعليمنا يطبقونها أولًا بأول فابتهجت قلوبنا وشعرنا أننا كدنا ننتهي وسنُطلق سراحهم بعد أن يقلدهم البقية إعجابًا بأخلاقهم ولكن ما حدث هو غير ما أردناه.

في فجر اليوم الحادي والعشرين فوجئنا بخمسة أفراد فقط يقفون أمامنا من أصل عشرين طالب علم كان يحضرون معنا كل يوم من الأيام العشرين الفائتة، تعجبنا من عدم حضورهم وظننا أنهم ربما ناموا ولم يشعروا بالوقت لكن فاجأنا رد أحد الطلاب عندما سألهم أبي عن سر غيابهم فقال: لقد قرروا ألا يعودوا للدروس مرة أخرى.

صُدمنا من قرارهم لكن ما قاله بعدها زاد من دهشتنا وصدمتنا حيث قال بحزن: كل ليلة كنا نتصدق بالطعام والماء الذي تعطوننا إياه للعشاء على من لم يتوبوا بعد طمعًا في تأليف قلوبهم فكانوا يختطفون الماء والطعام منا ويتناولونه بشراهة فقد

أنهكهم الجوع، كنا ننتظرهم حتى ينتهوا وننصحهم بالتوبة ونحاول تطبيق ما علمتمونا إياه عليهم لكنهم كانوا يَصمون آذانهم ولا يكتفون بذلك بل يسخرون منا ويتهموكم أنكم اشتريتمونا بالطعام والماء الذي تعطونا إياه وأنكم بذلك تغسلون أدمغتنا وتعلمونا أشياءً لا قيمة لها لتسيطروا على عقولنا وتسرقون أموالنا وأراضينا، بدأ بعض الطلاب يسمعون لقولهم ودخل الشك إلى قلوبهم ولكننا كنا نخبرهم أن ما قالوه ليس حقيقيًّا وإنما هي وساوس يدسونها داخل أنفسنا لنتحد معهم ضدكم ولكنهم بالأمس كانوا قد آمنوا بما يقولونه بشكل تام ولم يستمعوا لنا ونهرونا وقاموا بضربنا وطردنا بعيدًا عنهم وقالوا لنا: "اذهبوا إليهم أيها الضعفاء ليسوقونكم كالكلاب واتركونا نحن نعود لأيام الراحة والرخاء التي يريدونا أن نتقشف عنها ونزهدها."

بِتنا ليلتنا نبكي على حالهم وتذكرنا الشيخ تقي الدين -رحمه الله- وكم عانى معنا

لنتوب وما لاقاه من عذاب وكلمات كالسَموم، ذقنا ما ذاقه وشعرنا بما شعر به وتألمنا أن كنا سببًا في أن يشعر بالقهر كل يوم لعجزه عن إصلاحنا.

ثم صمت الفتى وبكى وبكينا معه حتى أوقفنا أبي وقال: حان موعد صلاة الفجر، هيا لنصلي الآن ونبدأ دروسنا وبعدها ننظر في الأمر.

فعلنا كما قال أبي واستمرينا كما كنا نفعل كل يوم حتى حان وقت الدرس الذي يلي صلاة الظهر وقد جلسنا جميعنا بكل وقار لننصت لما سيعلمنا إياه أبي ولكنه فاجأنا بقوله: أيها الطلاب الشجعان، لقد اختبر الله إيمانكم فثبتكم أنتم كما ضل أصحابكم، وحيث أنكم نجحتم في اختبار الله لكم فمن نكون نحن لنختبركم؟! لا اختبارات بعد اليوم بل سيجزيكم الله نتيجة صبركم وقررت بعد أن استخرت ربي واسترحت للأمر أن أخرجكم من الساحة وأعيدكم

لبيوتكم وحياتكم الطبيعية على أن تكون الصلاة والدروس في المسجد بعد الآن.
والآن كل ما عليكم فعله هو أن تقولوا بأعلى صوت لديكم "بسم الله نبدأ حياة جديدة في رحاب الله ونوره، اللهم أخرجنا من ظلمات المعصية إلى نور الإيمان وحررنا من سجن الساحة" ثم تقدموا بعدها في اتجاهنا وستتحرروا بإذن الله.

قال الخمسة طلاب كما قال أبي والذين هم امرأة في منتصف عمرها ورجل شيخ على مشارف الستين من عمره وفتى في الخامسة عشرة من عمره وطفل في الثانية عشرة وفتاة في السابعة عشرة من عمرها، فور أن انتهوا مما قالوا وتقدموا نحونا عبروا من الساحة بكل سهولة فرآهم من بقي في الساحة واندهشوا من تحررهم بهذه السهولة وهرولوا باتجاهنا يريدون الخروج فقال أبي بتحذير: أما أنتم فما زلتم معاقبين وفي الساحة سجنكم إلى أن تتوبوا إلى الله بإخلاص.

لم يهتموا لما قاله أبي وتقدم أحدهم نحونا فارتجف وانتفض كأنما أخذته صاعقة وسقط على الأرض مغشيًا عليه، ارتجف البقية وتراجعوا إلى الخلف ولم يهتم أحد منهم لأمر الشاب الملقى على الأرض أمامهم، ما زالت قلوبهم تملأها القسوة والعناد! تقدم الخمسة عشرة طالب واقتربوا منا وقالوا لأبي باستعطاف: نحن كنا معكم ولم نتخلف عنكم إلا اليوم، نحن مثلهم -وأشاروا إلى الخمسة طلاب المحررين- فلماذا أخرجتموهم وتركتمونا؟

قال لهم أبي بهدوء: هم ثبتوا على طريق الحق وأنتم استسلمتم لوساوس شياطين الإنس والجن وحِدتم عن الطريق فلماذا نحرركم؟!

قال أحدهم وهو يبكي: لقد ضعفنا ونعدكم ألا نعود لمثلها أبدًا، إن أخرجتمونا سنتأثر بكم أنتم ونسير على نهجكم أما لو تركتمونا بينهم سيضعفونا أكثر ونرتد عن

الإيمان ونصير مثلهم مرة أخرى، أنقذونا من براثنهم ولا تتركونا فريسة لهم.

لكن أبي قال بحزم: لقد استسلمتم لهم عن رضا واقتناع فما زالت قلوبكم تشوبها محبة المعصية، لن أخرجكم بل سأضعكم تحت الاختبار إن نجحتم فيه سنخرجكم وإن لم تنجحوا سنترككم معهم وهذه المرة لن ندعوكم للإيمان ولن نعلمكم أي شيء بل سنترككم تطبقون ما تعلمتوه وحدكم دون مساعدة، من يصلي منكم الصلاة على وقتها ويطبق ما علمناه إياه ويصبر على الاختبار سنخرجه بعده خمسة أيام ومن لم يفعل سنتركه يهلك مع البقية من الجوع والعطش حتى يدركه الموت.

ثم تركناهم وذهبنا ومعنا الخمسة طلاب المحررين يسيرون بجوارنا تائهين يتلفتون حولهم وكأنهم يرون البلدة لأول مرة، أوصلنا كل واحد منهم إلى بيته وطلب منهم أبي أن يغتسلوا ويأكلوا

ويشـــربوا ويســـتريحوا ويلحقـــون بنـــا فـــي المســـجد لصـــلاة العصـــر وهـــذا هـــو الاختبـــار الحقيقـــي. تركنـــاهم وذهبنـــا إلـــى المســـجد ننتظـــرهم فالاختبـــار هنـــا أن يلبـــوا نـــداء ربهـــم ويتركـــوا كـــل شـــيء وراءهـــم ولا تغـــريهم العـــودة لحيـــاة الرفاهيـــة وتنســـيهم فـــرض ربهم.

حـان موعـد صـلاة العصـر وأذن أبـي للصـلاة وبعـــد أن انتهـــى مـــن الأذان صـــلينا ســـنة العصـر ريثمـا يـأتي الطـلاب وبعـد أن انتهينـا مـــن الصـــلاة التفتنـــا خلفنـــا فوجـــدناهم قـــد حضـــروا ويصـــلون الســـنة، كـــم ابتهجـــت قلوبنـا لـرؤيتهم هـذه المـرة أكثـر مـن أي مـرة مضـت، كـانوا يبكـون مـن خشـية الله وربمـا لشـعورهم الـذي يـراود كـل مـن تطـأ قدمـه المسـجد لأول مـرة فـي حياتـه، هـو شـعور لا أسـتطيع وصـفه ولـن يسـتطيع أحـد وصـفه، هـو شـعور جميـل مـريح وحسـب تشـعر معـه أنـــك وأخيـــرًا تحصـــلت علـــى الســـعادة الحقيقيـــة. صـــلينا العصـــر وانتظرنـــا أخـــي مـآب الـذي هـبط مـن أعلـى المئذنـة وأخبـر

أبي بما رآه وهو يراقب الساحة والتي لا يتوقع أهلها أن هناك من يراقبهم وكيف سيعرفون وهم لا يرفعون أنظارهم ناحية المسجد قط؟

صلى مآب العصر وعاد لجولة المراقبة حتى أذن أبي للمغرب فهبط مآب بعد أن أخذ مكانه موئل وهكذا استمر الحال طيلة الخمسة أيام يتبادل فيهم عمي وولده وأخي المراقبة لمن هم في الساحة ونحن بالأسفل نصلي مع الخمسة طلاب ويحضرون الدرس بعد كل صلاة لمدة نصف ساعة ثم يذهبون لبيوتهم وأراضيهم يصلحون فيها ما فسد طيلة مدة غيابهم عنهم وكنا نساعدهم في ذلك وقد قررنا أن نفعل ذلك في أراضي وبيوت البقية بعدما ننتهي من هؤلاء حتى تكون مكافأة لهم عندما يتوبوا ويعودوا إلى بيوتهم فيجدونها نظيفة جميلة ويجدون أراضيهم وقد أينعت وعادت لها روحها الخضراء.

قُبيل فجر اليوم السادس من المهلة التي أعطاها أبي للخمسة عشرة طالب توجهنا نحن الثلاثة عشر نحو الساحة ونادى أبي الطلاب فتجمعوا بين يديه فقال لهم: لقد انتهت مدة الاختبار وقد نجح منكم عشرة طلاب فقط وسنحررهم الآن أما البقية فسنتركهم هنا في الساحة مسجونين كما كانوا لتكاسلهم عما أمرهم به الله وعدم اهتمامهم بتحذيري لهم.

طلب أبي من العشرة طلاب أن يقولوا مثلما قال الخمسة السابقين وبعد أن تقدموا نحونا تحرروا بفضل الله فتلقيناهم بأحر التبريكات والتحيات وفرحنا بهم جميعنا وأعطيناهم الماء والطعام فجلسوا على الأرض يتناولونه وأخبرونا أنهم قضوا الخمسة أيام الماضية في صيام خالص لوجه الله لعله يتوب عليهم وحين يحين موعد الإفطار ينتوون الفطر حتى لا يَصلوا اليوم باليوم الذي يليه.

بعدها نادى أبي في أهل الساحة قائلًا: يا أهل الساحة من العصاة استمعوا إلي، هذه المرة لن أعظكم أو أطلب منكم التوبة بل سأقول لكم آخر كلماتي وأترككم وشأنكم تفعلوا ما تريدون. من اليوم فصاعدًا لن نقترب منكم ولا من الساحة، سنترككم وشأنكم وأمامكم خيارين؛ إما أن تتوبوا إلى الله وتُصلون كلما سمعتم الأذان كما رأيتمونا نفعل من قبل وحين نتيقن من إيمانكم وتوبتكم سنحرركم بإذن الله، وإما تبقون في غِيكم وتنتظرون الموت بصدر رحب وأنتم تعلمون ما ينتظركم بعده.

ثم أدار أبي لهم ظهره وتوجه ناحية المسجد وبدأ يسير إليه وتبعناه جميعنا لنصلي الفجر.
بكى العشرة طلاب بحرارة وأقدامهم تطأ أول خطوة داخل المسجد، أذن أبي للصلاة وصلينا خلفه وبعد الصلاة وتلاوة الأذكار وقراءة ورد القرآن وسماع الدرس أخذنا الطلاب العشرة إلى بيوتهم فكانت فرحتهم

غـامرة عنـدما وجـدوا بيـوتهم نظيفـة كمـا تركوهـا ومليئـة بالطعـام والخيـرات، تركنـاهم ليسـتريحوا حتـى موعـد صـلاة الظهـر، بعـد الصـلاة والـدرس أخـذناهم إلـى أراضـيهم فـابتهجوا باخضـرار الأشـجار والمحاصـيل وعـودة الحيـاة إلـى أراضـيهم فسـجدوا شـكرًا لله وبـدأنا العمـل فـي بـاقي الأراضـي نسـاعد بعضـنا بعضًـا لمـدة شـهر اسـتمرينا خلالـه فيمـا كنـا نفعلـه مـن صـلاة ودروس وتنظيـف البيـوت وإصـلاح الأراضـي وتركنـا السـاحة وأهلهـا دون زيـارة واحـدة ولكـن لـم نتـركهم دون مراقبـة فقـد اسـتمر عمـي وولـده وأخـي فـي التنـاوب علـى مـراقبتهم دون تـوانٍ. وهـا قـد حانـت اللحظـة التـي سـنقرر فيهـا مصيرهم الذي اختاروه بمحض إرادتهم.

الفصل الثامن عشر "الأخير"
"نهاية العذاب"

بعد مرور شهر توجهنا نحن الثمانية بصحبة الخمسة عشرة طالب نحو الساحة وما إن وصلنا إليها ووقفنا أمامها حتى تجمهر أهلها قبالتنا وقد طغى عليهم الشحوب والضعف من شدة الجوع والعطش. كان عددهم أقل مما تركناهم فقد مات بعض منهم ودفنهم الآخرون، صارت الساحة مدفنهم تلك التي طالما عاثوا فيها فسادًا وتحدوا فيها ربهم وبارزوه بالمعاصي وعاندوا واستكبروا وطغوا ورفضوا النصح والهداية، مات من مات منهم على ضلال وقد كانوا منذ شهور قليلة فائتة منعمين يظنون أن بينهم وبين الموت أمدًا بعيدًا وأن صحتهم وقوتهم ستعصمهم منه، كان أمامهم طريق النجاة فأعموا أبصارهم عنه واختاروا طريق الشيطان ولم ينفعهم عند موتهم.

قال أحد رجال الساحة بوهن شديد يظهر جليًّا في صوته كما ظهر على بدنه: لقد مات عدد منا من شدة الجوع والعطش، لقد تعبنا ونرجوكم أن تحررونا قبل أن يموت البقية.

ابتسم أبي وقال بهدوء: لكنكم ما زلتم على غِيكم.

اندهش جميع من في الساحة وقال الرجل بنبرة متعجبة: كيف عرفت ولم تأتوا إلينا قط طوال الشهر الماضي؟!

أجابه أبي برزانة: لا يهم الآن كيف عرفت ولكن المهم هو ما سأقوله الآن فأصغوا إلي.

انتبهنا نحن وجميع الحضور بتلهف لما سيقوله أبي وأخذنا ننصت باهتمام بالغ حيث قال: سنحرركم الآن ولكن لن تعودوا

لحياتكم السابقة فقد تغير الوضع تمامًا. هذه البلدة أضحت مسلمة وسأعين لها قاضيًا وسيكون هناك قوانين ودار للقضاء تحكم بينكم، سأختار صاحب كل مهنة بنفسي من الخمسة عشرة مسلم الذين آمنوا معنا، أما عنكم أنتم فقد آلت كل أراضيكم وبيوتكم إلى بيت مال المسلمين وستصبحون عمالًا في المحال والأراضي بعد أن كنتم مُلاكًا وستؤجرون على عملكم من بيت المال حتى تستطيعوا تأجير بيوت لتسكنوها وتحصلون على ما تحتاجون من متاع الدنيا الزائل. من يريد أن يتزوج يزوجه القاضي ومن يريد أن يؤمن فليتوجه إلى القاضي ليعلمه كيف يدخل الإسلام ويصوم ويصلي ويؤدي حقوق ربه عليه حينها يتكفل القاضي بإعادة أرضه وبيته إليه وتسجيلهم باسمه بعد أن يتأكد أنه آمن مخلصًا من قلبه وليس نفاقًا ليستعيد ماله. إمام المسجد سيكون القاضي وهو من يتحكم في البلدة كلها أي أن القاضي هو الحاكم وهو المسئول عن

تعيين خازن بيت المال وجميع موظفي البلدة وتسيير أمورها وأمور أهلها، حياة الترف والبذخ التي اعتدتوها قد اندثرت وحلت محلها حياة العمل والكد.

كان الوجوم يعتلي كل الوجوه عدا وجوهنا نحن الثمانية فقد كنا نعلم كل ما سيقوله أبي. سأله أحد رجال الساحة بنبرة غيظ شديدة: من أنت لتتحكم في حياتنا وأموالنا بهذه الطريقة؟!

أجابه أبي بحزم وحدة: لا ترفع صوتك وأنت تحادثني وتحدث بأدب، لقد اختارنا الله لننقذكم من عذابه وها نحن نحاول أن نفعل، من الآن ستنفذون ما قلته ومن يعترض سيتم شنقه في هذه الساحة ودفنه بجوار من سبقوه. لقد تنعمتم في خيرات الله ولم تشكروه ولن أدعكم تتنعمون بخيره وتعصونه بعد الآن، من يأتِ منكم بمعصية كبيرة كانت أو صغيرة سيحاسب على قدرها كما شرع الله، سأختار القاضي

الـذي هـو أعلـم بـالحلال والحـرام وأحكـام الشـريعة والأتقـن حفظًـا وتـلاوة للقـرآن ولـن يظلمكـم ثقـوا بـذلك، أنـا أفعـل ذلـك لمصـلحتكم لعلكـم ترجعـون عـن غـيكم وإن لـم ترجعـوا فـلا تفسـدون مـن صـلح مـنكم، لعلهـا فرصـة لتراجعـوا أنفسـكم قبـل أن تلقـوا مصـير مـن مـات مـنكم علـى الضـلال. والآن اخرجـوا مـن السـاحة واتبعـوني فقـد أعـددت لكـم وليمـة لتـأكلوا وتشـربوا ثـم تحضـرون تنصـيب القاضي ليؤدي مهامه من اليوم.

تحـرك أبـي إلـى حيـث الوليمـة والتـي أقيمـت أمـام المسـجد وتبعنـاه نحـن والخمسـة عشـرة مؤمنًـا ثـم تبعنـا أهـل السـاحة وهـم يخطـون خطـواتهم خارجهـا بخـوف وحـذر وعـدم تصـديق. وصـلنا حيـث الوليمـة فأشـار لهـم أبـي بـالجلوس فهرولـوا إلـى الأرض وجلسـوا حـول الطعـام وحملـوا جميعهم كـؤوس المـاء أولًا وشـربوها دفعـة واحـدة لعلهـا تـروي ظمـأهم الطويـل ثـم انهـالوا علـى الطعـام يتناولونـه بشـراهة تُبـدي مـدى

اشتياقهم له. بعد أن أنهوا طعامهم دلف أبي إلى المسجد وأمسك بالميكروفون وقال: قررنا بعد استخارة الله -عز وجل- أن نختار قاضيًا لهذه البلدة من أهلها وهو الشاب مُنصف عبد الحق، أما عن مهامه فقد أبلغتكم بها، وأما عنكم فوجب عليكم مبايعته على السمع والطاعة ما أطاع الله فيكم، سيظل قاضيًا عليكم إلى أن يتوفاه الله إن أحسن فيكم على أن يترك وصية يرشح فيها من يتولى بعده حسب المواصفات التي يجب أن تتوافر في القاضي، أما إن أساء فيكم فعلى المؤمنين أن ينصحوه فإن لم يستجب لنصحهم فعليهم أن يعزلوه ويعينوا غيره والقاضي الجديد يحاكمه فيما أساء فيه. سيكون القاضي لمدة شهرين تحت مراقبتنا نعلمه فيها أصول القضاء ونطمئن أنه يؤدي عمله بإخلاص لله وبضمير وإتقان وبعدها نتركه يحكم فيكم بما تعلمه.

بعدما أنهى أبي كلامه خرج من المسجد ومد يده إلى القاضي وبايعه فتبعه جميع الرجال ثم بايعه النساء دون أن يمددن أيديهن ثم الفتية والأطفال. بعدما تمت البيعة اجتمعنا نحن الثمانية والقاضي والأربعة عشرة مؤمنًا في المسجد ليخبره أبي بمهامه وليختار من بينهم من يترأس المسئوليات في البلدة فاختار الشاب أمين عبد الكريم ليكون خازن بيت المال واختار باقي الرجال والفتية ليكونوا جنودًا وأما النساء فسيساعدون في بيت المال حتى يؤمن غيرهم ويتم تعيينهم وترتاح النسوة من الأعمال.

في الأيام التالية علم أبي القاضي إمامة المصلين وكيف يخطب الجمعة وكيف يحدد رؤية هلال الشهور القمرية وباقي مهامه وعلم خازن بيت المال كيف يجمع الزكاة ويحدد مقدارها وكيف ولمن يعطيها.

مر شهران متتابعان عَلَّم أبي فيهما القاضي كل شئون الحكم واطمأن على

تسـيير أمـور البلـدة واطمـأن إلـى أن قلـوب أهلهـا مـن العصـاة بـدأت تلـين فمـنهم مـن آمـن وحسـن إيمانـه ومـنهم مـن مـا زالـت نفسـه تغلبـه تـارة ويغلبهـا تـارة ومـنهم مـن مـا زال فـي غيـه ونـدعو لهـم كـل صـلاة أن يتوب الله عليهم.

بعـد أن اطمـأن أبـي أنـه نفـذ وصـية الشـيخ تقـي الـدين توجهنـا إلـى دار القضـاء واستأذن فـي الـدخول علـى القاضـي فـأذن لنـا وبعـد أن سـلمنا عليـه ورحـب بنـا قـال أبـي بصـوت يشـوبه الحـزن: لقـد جئنـا لنودعـك ونوصيك بالبلدة وأهلها خيرًا.

انـدهش القاضـي وقـال فـي وجـل: تودعونني! لماذا؟ إلى أين أنتم ذاهبون؟

قـال أبـي بحـزم: لقـد قررنـا أن نتـرك البلـدة ونعـود إلـى قريتنـا التـي فيهـا نشـأنا وعشـنا طيلـة حياتنـا، نريـد أن نُـدفن هنـاك كمـا وُلـدنا هنـاك.

سـألـه القاضـي: ولمـاذا؟ هـل قصـرنا فـي حقكم؟ أتشعرون بالغربة بيننا؟

أجابـه أبـي نافيًـا: كـلا والله لـم تقصـروا بحقنـا قـط ومـا شـعرنا بيـنكم إلا بـالأخوة وأننـا بـين أهلنـا ولكنـه الحنـين، لـم تجـرب أن تتـرك موطنـك لكننـا جربنـا وكـم نشـعر بـالحنين إليـه! مـن الصـعب علـى الإنسـان أن يسـتقر فـي بلـد غيـر بلـده حتـى لـو كـان فيهـا منعمًـا وسيشـقى فـي بلـده ولكـن القلـب مـرتبط بترابه وسيظل يحن إليه إلى أن يحتضنه.

طأطـأ القاضـي رأسـه قلـيلًا وقـال بصـوت حـزين وهـو يغالـب دموعـه: يعـز علينـا فـراقكم ولكـن لا نسـتطيع أن نـرغمكم علـى البقـاء، ونرجـو أن تزورونـا مـن حـين لآخـر لنستعيد الود والذكريات، ما اسم قريتكم؟

قـال أبـي بترحـاب: بـالطبع سـنزوركم هـذا مؤكـد، قريتنـا اسـمها قريـة المسـتقر، اسـم

على مسمى هي فبعد غياب ما يقارب العام سنستقر فيها بعد طول فراق، خرجنا منها في اليوم الأول من شهر يوليو للعام 2024 وسنعود إليها بعد يومين ربما اليوم الأول من إبريل لعام 2025، أيام غريبة مرت وكأنها سنوات طوال. نوصيك خيرًا بالسيدة كريمة، لا تتركوها وحدها فما اعتادت الوحدة، أكرمها إكرامًا لزوجها وما فعلاه لأجلكم.

بكى القاضي ونهض من مجلسه وتوجه نحو أبي وقبل يديه ورأسه ثم احتضنه واحتضن عمي وأخي وابن عمي مودعًا وهو يقول: لا تقلقوا عليها فلن يمر يوم دون أن أتفقد حالها فلن أنسى صنيعها وصنيعكم وصنيع زوجها الراحل من قبلكم ما حييت.

ثم ودعناه وخرجنا وتوجهنا إلى بيت العمة كريمة لنودعها وكنا في الطريق نودع كل من يقابلنا حتى وإن لم يكن من

المؤمنين، كان أبي يوصي المؤمنين بالثبات ويوصي العاصين بالعودة إلى الله. انتهينا إلى حيث بيت العمة كريمة فتناولنا معها آخر وجبة غداء وأعطاها أبي ورقة تَنازل فيها عن الأرض والبيت الذَين أهداهما لنا العم تقي وودعناها بعد أن زرنا معًا قبر الشيخ تقي الدين وتركناها وهي تبكي بحرارة على فراقنا وكأنها فقدت جزءًا من روحها. لم يكن حالنا أحسن من حالها فسنشتاق إليها كثيرًا.

قام أبي بتأجير سيارة نصف نقل لتقلنا إلى حيث قريتنا وفوجئنا بالقاضي وجميع أهل البلدة ينتظروننا عند بوابة البلدة ليودعونا، أوصى القاضي صاحب السيارة بمعرفة الطريق جيدًا حتى إذا ما أراد أن يزورنا أو يرسل إلينا شيئًا يصل بسهولة، كان الجميع يحملون هدايا يريدون أن يهدونا إياها لكن أبي رفض بلطف وقال: تبرعوا بها لبيت المال، يشهد الله أني ما أخذت من قريتكم شيئًا لنفسي إلا أجرة

السيارة فقط اقترضتها من العمة كريمة وسأعيدها إليها بإذن الله عندما يمن الله علينا بمال.

صعدنا إلى صندوق السيارة من الخلف وكاد أبي أن يركب بجوار سائقها ولكن أوقفه سؤال القاضي: سيد معتمد، ألن تخبرنا قبل أن ترحل كيف حبستنا في الساحة دون أسوار أو قيود؟

ابتسم أبي وقال بصوت مرتفع قليلًا ليسمعه الجميع: لم أأسركم بقيود صنعتها بل بوهم صنعتموه أنتم.

سأله القاضي باندهاش: كيف ذاك؟

أجابه أبي: لقد أغرقتكم المعاصي في نوم عميق فزرعنا حول الساحة أنابيب تشع كهرباء غير مرئية من يقترب منها تصيبه بلسعات غير قاتلة لكنها مؤلمة بشكل كافٍ

لتـــوهمكم أن مـــن حـــولكم أســـوار قاتلـــة، عنـــدما حـــررتكم كانـــت كلمـــة الســـر هـــي الجملـــة التـــي تلوتموهـــا خلفـــي أُغلـــق بهـــا المجـــال الكهربـــائي حتـــى خـــرجتم ومـــن ثـــم عـــاد للعمـــل بكلمـــاتي التـــي قلتهـــا لمـــن بقـــي مـــنكم وقبـــل أن نحـــرر بقيـــتكم آخـــر مـــرة قمنـــا بـــإغلاق الأنابيـــب نهائيًّـــا وإبطـــال عملهـــا، وبالمناســـبة فتلـــك الأنابيـــب كنـــا نزودهـــا بأعشـــاب منومـــة ومهلوســـة تتصـــاعد فـــي الهـــواء كالـــدخان غيـــر المرئـــي فتستنشـــقونها ويحـــدث مـــا حـــدث لكـــم فـــي أيـــامكم الأُول، هـــذا كـــل مـــا فـــي الأمـــر والبـــاقي صـــنعته عقـــولكم وأوهمتكم به.

ودعهـــم أبـــي وتـــركهم فـــي انـــدهاش مـــن عبقريتـــه وتحركـــت الســـيارة مســـرعة والبلـــدة تختفـــي مـــن أمـــام أنظارنـــا حتـــى تاهـــت معالمهـــا بعد أن دخلنا النفق.
اســـتمرت رحلـــة عودتنـــا لقريتنـــا حتـــى صـــباح اليـــوم التـــالي فقـــد ســـلكنا طريقًـــا طـــويلًا لا نعرفـــه غيـــر ذلـــك الـــذي أتينـــا منـــه مـــن قبـــل،

وصلنا إلى قريتنا مع شروق الشمس وفور أن دلفناها عبأنا صدورنا بهوائها العذب الذي اشتقنا إليه، ارتجفت أجسادنا فرحًا بعودة الروح إليها وتكاد قلوبنا تتقافز من صدورنا من شدة اضطرابها وابتهاجها.

وصلنا حيث ركام بيتنا الذي ما زال على حاله، هبطنا من السيارة وودعنا صاحبها ورحل، تجمهر أهل القرية حولنا يرحبون بنا، فقراء هم لكن قلوبهم حنونة محبة.

بدأنا العمل على إزالة الركام وأقرضنا أهل القرية ما لديهم من معدات ولولا حاجتهم للعمل اليومي لساعدونا بأنفسهم.

بعد مرور أسبوع من العمل الدؤوب أزلنا فيهم الركام، رتبنا ما يصلح للاستعمال مرة أخرى أمام البيت وما لا يصلح مهدنا به بعض الطرق المتهالكة، أما عن التراب فجمعناه في جانب لنقوم باستخدامه في عمل مادة لاصقة للطوب ببعضه، شرعنا في بناء البيت عن طريق لصق الأحجار التي انتقيناها من الركام بالطين الذي

صنعناه بمزج التراب بالماء الذي جلبناه من الترعة، بعد أسبوع آخر كنا قد انتهينا من بناء بيت بسقف منخفض قليلًا عن بيتنا القديم لكنه يفي بالغرض، البيت الجديد عبارة عن حمام وغرفتين غرفة للرجال وغرفة للنساء وصالة في حجم الغرفة أصبحت مطبخًا وغرفة لتناول الطعام وللجلوس فيها في آن واحد، صنعنا موقدًا من الطين يوقد بالحطب وأما عن الماء فقد عثرنا على أنبوب الماء الرئيسي وقمنا بتركيب صنبور به ريثما نستطيع أن نكمل توصيل المياه إلى البيت، وأما الكهرباء فقد اكتفينا بتوصيل سلك من عمود الكهرباء من الخط الخاص بنا قمنا بتوصيله بمصباح في الحمام ومصباح لكل غرفة معلقين بالسقف الذي صنعناه من تجميع عيدان البوص ببعضها التي تنمو على جوانب الترعة بعد أن جمعناها وجففناها وجهزناها ونحمد الله أننا في الصيف ونطمع أن يعيننا على تسقيف البيت قبل الشتاء، كنا نتناول طعامًا قليلًا

نشتريه من المال الفائض من أجرة السيارة فقد رفض السائق أن يأخذ إلا ربع الأجرة فقط. أسسنا البيت بقليل من المتاع الذي وجدناه أسفل الركام؛ بعض المراتب والمفروشات والثياب والأواني التي لم تتضرر كثيرًا، حتى الأبواب والشبابيك أصلحناها وأعدنا استخدامها، فرح أهل القرية ببيتنا الجديد وأتوا إلينا جميعهم ليباركونا. بعد أن استقر بنا الحال بدأ أبي وعمي وإخوتي بالعودة للعمل في الأسواق عند بعض الباعة مقابل أجرة زهيدة نقتات منها.

مرت شهور استطعنا فيها أن نؤجر أدوات نستخدمها في طهي الطعام والعودة لعملنا السابق واستطاع إخوتي الثلاثة العودة لدراستهم من جديد.

بعد مرور عام تخرج موئل ومأوى من الجامعة وبدأت رحلتهما في البحث عن عمل بشهادتيهما وقد وفقهما الله إليه وتحسنت معيشتنا قليلًا، أما عن مآب فقد تفوق في الثانوية العامة والتحق بكلية

الطب عبر منحة لتفوقه فهو الأول على الجمهورية المصرية جميعها وليس على محافظتنا الوادي الجديد فحسب. وها قد بدأت الحياة تبتسم لنا بعد طول ما عانيناه من فقر وتهجير.

ليست فقط هذه هي الأخبار التي أبهجتني وحدها بل خبرًا كنت أنتظره منذ عامين حيث أتانا خبر وفاة عبد الجبار بعد أن أصيب بمرض مجهول عانى على إثره كثيرًا من ألمه الذي لم يجد من يعالجه في بلدته تلك التي رفض أن يتعلم أهلها، أتانا الخبر عن طريق العم علوان سائق السيارة التي تعطلت به من قبل على الطريق وساعدناه في تصليحها، لقد فوجئ بنا أمامه في السوق عندما أتى لشراء الطعام وكم كانت فرحته وفرحتنا غامرة بعد أن تجدد اللقاء بيننا.

لا أنكر أنني شعرت بالانتصار لهلاك عبد الجبار رغم محاولتي ألا أشمت به ولكن لم أستطع أن لا أفرح بهلاك من ظلمني وقاسينا بسببه. علمنا أيضًا من أحد أقارب

أولاد خالي أن زوجة خالي قد ذهب بصرها وأصابها مس من جنون وأصابها الضعف بعد أن كانت جبارة عتية.

واليوم أستطيع أخيرًا أن أقول بقلب مطمئن أن الله من علينا وعدنا إلى وطننا وبيتنا وعملنا وانتهى التهجير فالحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي.

تمت بحمد الله تعالى وفضله وكرمه

{وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ}